

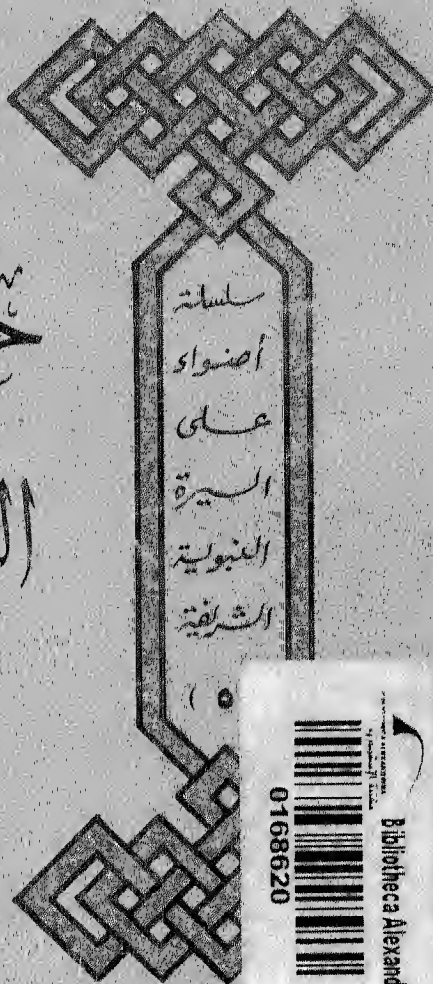
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
مركز السيرة والسنة

تاريخ
١٣٦٥

خوارج وقامتات
في
السيرة النبوية الشريفة

تأليف
الدكتور/ محمود محمد عمار

القاهرة
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م



سلسلة
أعضاء
على
السيرة
النبوية
الشريفة



0168620

Bibliotheca Alexandrina

سلسلة أضواء
على السنة النبوية
(٥)

وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
مركز السيرة والسنة

خِوَاطِرُ قَامِلَاتٍ فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ

مراجعة
الدكتور محمد الطيّب النجار

تأليف
الدكتور/ محمود محمد عمار

القاهرة
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِنَّمَا عَلَّمَنِ حَسْبُ لِقِ عَظِيمٍ

«قرآن کریم»

إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ

«حدیث شریف»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

رسالات الأنبياء الى الناس تالدة خالدة تمتد جذورها الى
الانسان الأول وهو آدم أبو البشر وتنتهى فروعها بانتهاى هذا الجنس
البشرى وقيام الناس لرب العالمين .

واذا كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم
الرسل والأنبياء فان رسالته لا تزال متصلة الى يوم الناس هذا
يحملها خلفاؤه والعلماء من أمته على توالى الأجيال والقرون .

ولا ريب ان سيرة هذا النبى العظيم انما هى الأساس الكامل
لدعوته العظيمة التى أضاءت المشارق والمغارب وملاأت العالم
بالهدى والنور ومن أجل ذلك كانت أهمية هذه السيرة الوضاعة
العطرة للمسلمين بل للانسانية جمعاء حيث تناقلتها الأمم والشعوب
جيلا بعد جيل ثم سجلت بعد ذلك على مختلف العصور فى كتب
يضيئ بها الحصر والتعداد وسوف نظل الكتابة فيها متصلة الحلقات
الى ان تنفطر السماء وتتكدر النجوم وتبدل الأرض غير الأرض
والسماوات .

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن هو خواطر كريمة فى بعض الجوانب من السيرة النبوية المباركة وتاملات دقيقة فى طائفة من الأحداث التى مرت بالرسول صلى الله عليه وسلم أو مر هو بها . ومحاولة جادة لاستخلاص العبر والعظات من هذه الأحداث الخالدة المجيدة . .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته كالشجرة الطيبة التى ثبتت أصولها وانبسطت ظلالتها وآتت أكلها كل حين باذن ربها ، بل كالمشكاة المنيرة يتالق ضوءها ذات اليمين وذات الشمال وفى كل مجال ويهدى بها الله من يشاء من عباده ، فلما قضى الله على رسوله أن يلحق بالرفيق الأعلى ويوضع جسده الطاهر فى باطن الأرض رجع الناس بسيرته نورا يسمى بين أيديهم وبإيمانهم وسوف يظل هذا النور هداية للناس ورشادا ما دامت السماوات والأرض وما بقى الوجود كله » .

وهذه الخواطر الكريمة والتأملات الدقيقة التى سجلها العالم الجليل الدكتور محمود محمد عمارة الأستاذ بكلية أصول الدين والدعوة بجامعة الأزهر ، هذه الخواطر والتأملات تتركز حول العبر المستفادة من أحداث السيرة النبوية وتهدف الى تصوير تلك الأحداث بأسلوب رقيق وبيان واضح يكشف النقاب عما وراءها من أسرار تؤنس السارين فى بيداء الحياة وتضع أقدامهم على الطريق السوى وتخرجهم من الظلمات الى النور ، وسوف يجد القارئ فى هذه الخواطر اجابة شافية لما يجيش فى نفسه من تساؤلات ، وسوف يجد كذلك — من الطمانينة القلبية ما يدفعه الى القدوة الصالحة والتأسي بالأنبىاء المحمدي والسلوك الإسلامى .

وهاكم بعض أمثلة من هذه الخواطر والتأملات ..

فحينما يتحدث عن رعى الرسول للغنم يقول : « ان رعى الغنم كسب شريف وتربية نفسية وترويض على العطف على الضعيف ولقد أتاح رعى الغنم لمحمد صلى الله عليه وسلم فرصة ذهبية اكتملت فيها ملكاته النفسية وقواه الجسدية والعقلية وكان ذلك تأكيدا لاستقلال ذاته واصراره على أن يأكل من عمل يده وكان الى جوار ذلك تعويدا على الفضائل التي تعينه على حسن العبادة ومنها الصبر والأناة والرافة ورعاية الضعيف ، ومعنى ذلك أهمية رعى الغنم في تسليح الانسان بقيم لابد منها في سياسة الأمم » .

وحينما يتحدث عن خلوة محمد صلى الله عليه وسلم بغار حراء يقول : كانت خلوته صلى الله عليه وسلم في غار حراء طرفا من تدبير الله له وليعده لما ينتظره من الأمر العظيم ولابد لآى روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى لابد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت وانقطاع عن شواغل ارض وضجة الحياة .. وهكذا دبر الله لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى وتغيير وجهة الأرض وتعديل خط التاريخ ، دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة كي ينطلق في هذه العزلة مع روح الوجود ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون .. وعندما جاءه الوحي وهو في غار حراء ولد الانسان في هذه اللحظة وثبتت صلاحيته ليكون رسولا نبيا بعد أن ظن الجاهلون استحالة ذلك حين جردوا الانسان من صلاحية التلقى عن الله سبحانه وجعلوا ذلك للملك دون الانسان .

وحينما يتحدث عن الهجرة النبوية نراه يقول : « ان غريزة حب الوطن من الفرائز النائية في كيان الانسان واذا كان حب البقاء فطرة في طبيعة الانسان فان حب الوطن اعمق جشورا واوسع مدى . وكما قال القائل :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى اليه في الخلد نفسى

واذا كان للوطن بمفهومه القومى هذه المنزلة فان وطن الروح اعز واغلى واذا اضطرت في النفوس محبة المكان ومسئولية الايمان فلا خيار للمسلم ولا مفر من ركوب الأهوال ومقارعة الرجال ولن يتردد أبدا في هجرة وطنه انتصارا لمبادئه وحفاظا على دينه وايمانه » .

وهكذا كانت الهجرة امتحانا عسيرا لأقدار الرجال ، وترجمة عملية يتثبت فيها المسلم انه نجح في الاختبار العملى بعد نجاحه في الاختبار النظرى لأن حب الوطن قطرة في نفوس البشر . والذين ينتصرون على هذه القطرة ايثارا لوطن الروح ان يبقى ويزدهر . اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى .

وقد اثبت المهاجرون الاولون ان الايمان الناضج يحول البشر الى خلائق تباهى الملائكة سناء ونضارة ، ولم تكن هجرة احدهم كانتقال موظف من بلد قريب الى بلد ناء بعيد ، ولا ارتحال طالب قوت من ارض مجذبة الى ارض مخصبة ، ولكنها اكراه رجل آمن في سربه ممتد الجذور في مكانه على اهدار مصالحه والتضحية بأمواله والسير الى مستقبل مبهم لا يدري ما يتمخض عنه من قلق

ومشاكل وهموم وأحزان . ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه
أقيل « مغامر طياش فكيف وهو ينطلق في أرض الله الواسعة
يحمل أهله وولده وهو بذلك رضى الضمير مطمئن القلب بالايمان» ؟
وهكذا يمضى العالم الداعية في خواطره وتأملاته مشرق
الأسلوب دقيق التصوير أمينا في النقل فهو اذ ينقل أحيانا بعض
الأفكار التى سبقه اليها بعض الباحثين يرد كل كلمة الى صاحبها
مشيرا الى ذلك فى ذيل الصفحات .

وبعد فسوف تجد أيها القارئ الكريم فى ثنايا هذا الكتاب
ان شاء الله ما يشفى صدرك ويسمو بروحك ويهيب بك الى ان
تتمثل امام عينيك وفى نفسك قول الحق سبحانه وتعالى :
« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو
الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

هذا . ومن الله العون وبه التوفيق .

الدكتور محمد الطيب النجار
المشرف العام على مركز السيرة والسنة

بين يدي السيرة النبوية تمهيد ومقدمات

انتهت بحوث البصراء بطبيعة النفوس الى تلخيص عناصر
العظمة في امور اربعة :

- ١ — الاخلاق الرفيعة التى يتميز بها العظيم .
 - ٢ — سمو المبادئ التى يدعو اليها .
 - ٣ — قدرته على التأثير وتكميل غيره بعد كمال نفسه .
 - ٤ — نجاحه فى صياغة جيل يتمثل بمبادئه .
- ويتحمل الامانة من بعده .

* * *

والتأمل فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج
بيقين جازم ان رسولنا الكريم — من خلال استقراء سيرته العطرة —
قد اسنجم هذه الخصائص جميعا ..
وعلى اوفى معانيها ..

لقد التقى فيه من خصائص القيادة كل ما تفرق في نفوس
العظماء من سمات ..

فإذا رحت تتأمل شخصيته الفذة بهرتك أضواؤها حتى لكأنك
منها في بستان موزق مثير .. فيه من كل زوج بهيج .

وإذا شمر زعيم أو قائد بمقدرة غائقة في ناحية فانك تراه في
ناحية أخرى ساقطاً في القاع ..

وهذا نابليون .. الذي ذاعت بطولته .. ونسجت حولها
الأساطير (لقد أكره أمة كاملة بحكومتها ووجوه شعبها على أن
يكونوا « قوادين » له . يوصلونه الى الفتاة البولونية التي أحب .

وزاد على ذلك فاضطر أباه على أن يلزمها الاثم الذي اراده
منها . وجعل استقلال « بولونيا » رهنا بتحقيق هذه الرغبة
النجسة الفاجرة (١) .

من أجل ذلك .. كان من الظلم لحمد صلى الله عليه وسلم
أن نقيسه بواحد من هؤلاء العظماء ..

ولقد حاول كتاب مخلصون أن يرفعوا محمداً الى السموات
المعالم فقالوا :

هو عبقرى ..

أو بطل الأبطال ..

(١) تعريف عام بدين الاسلام للشيخ على الطنطاوى .

ولكن قصارى هذا الوصف كما أشار بعض الباحثين أنه
واحده من افراد قلائل ..

وربما كان ذلك مندوحة الى التشكيك في تفرد رسالته بالهيمنة
مادام هناك مثله عباقرة .. وابطال .. لهم مذاهب . ولهم مبادئ
وهيهات :

اذا كان انل الواد يجمع بيننا
فغير خفى شيحه من خزامه !

والحق انه : سماء .. ما طاولتها سماء :

(فان من العظماء من كان عظيم العقل . ولكنه فقير في
العاطفة . وفي البيان . ومن كان بليغ القول وثاب الخيال . ولكنه
عادي الفكر . ومن برع في الادارة او القيادة ولكن سيرته واخلاقه
كانت اخلاق الفجار ومحمد صلى الله عليه وسلم هو وحده الذي
جمع العظمة من اطرافها) .

ولا شك ان محمدا (ليس قصة تتلى في يوم ميلاده كما يفعل
الناس الآن . ولا التنويه به يكون في الصلوات المخترعة التي قد
تضم الى الفاظ الاذان .

ولا اكنان حبه يكون بتأليف مدائح . او صياغة نعوت مستغربة
يتلوها العاشقون . ويتأوهون . او لا يتأوهون . فرباط المسلم
برسوله الكريم اقوى واعق من هذه الروابط الملففة المكذوبة على
الدين .

وما جنح المسلمون الى هذه التعابير — في الابانة عن تعلقهم

بنبيهم — الا يوم أن تركوا اللباب الملىء واعياهم حمله . فاكتفوا
بالمظاهر والأشكال .

ولما كانت هذه المظاهر والأشكال محدودة في الإسلام فقد
افتنوا في اختلاق صور أخرى . ولا عليهم . . فهي لن تكلفهم جهدا
ينكصون عنه .

ان الجهد الذى يتطلب العزمات هو الاستمسك باللباب
المهجور . والعودة الى جوهر الدين ذاته :

فخير من الاستماع الى قصة المولد يتلوها صوت رخيم أن
ينهض المرء الى تقويم نفسه . واصلاح شأنه حتى يكون قريبا من
سنن محمد صلى الله عليه وسلم : في معاشه ومعاده . . وحربه
وسلمه . وعلمه وعمله . وعاداته وعباداته .

ان المسلم الذى لا يعيش الرسول في ضميره . . ولا تتبعه
بصيرته في عمله وتفكيره . لا يغنى عنه أبدا ان يحرك لسانه بألفى
صلاة في اليوم والليلة وانما هي :

مصدر الأسوة الحسنة التى يقتفئها . ومنبع الشريعة العظيمة
التي يدين بها .

فأى حيف في عرض هذه السيرة . وأى خلط في سرد أحداثها
إساءة بالغة الى حقيقة الايمان نفسه(٢) .

(٢) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ٥/٤ .

لقد نجانا الحق سبحانه مما وقع فيه أهل الأديان الذين
صوروا أنبياء تماثيل .. وذلك بسننه صلى الله عليه وسلم التي
تغنينا عن التمثيل .. لأننا بها نتمثله صلى الله عليه وسلم بكل
أقواله وأعماله :

- (أ) ففى رحابها كل التفاصيل كأنك تشاهده .
- (ب) ثم أنها ميزان لسير الحياة والأحداث .
- (ج) وهى كذلك زاد من القوة يمنحنا القدرة على مواجهة
الفساد بالأصلاح . والضعف بالقوة .
- واذن .. فدراسة السنة دراسة الآملين العاملين حياة
للأمة . واستمرار لها .

مراحل السيرة :

- يقول ابن القيم :
- العبد من حين استقرت قدمه فى هذه الدار . فهو مسافر
فيها الى ربه .
- ومدة سفره هى عمره الذى كتب له .
- فالعمر هو مدة سفر الإنسان فى هذه الدار الى ربه .
- ثم جعلت الأيام والليالى مراحل سفره :
- فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل . فلا يزال يطويها مرحلة
بعد مرحلة . حتى ينتهى السفر .
- والحديث عن السيرة النبوية يمر بمراحل ثلاث :

الرحلة الأولى : هي مرحلة الاعداد الالهى . تمهيدا لنزول الرسالة .

الرحلة الثانية : من البعثة الى الهجرة .

الرحلة الثالثة : من الهجرة الى أن انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى .

مرحلة الاعداد :

الله أعلم .

حيث يجعل رسالته .

يقول الحق سبحانه :

○ _____ ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ

آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِحَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ

اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا

صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ (٣)

جاء في سبب نزول الآية :

إن أبا جهل قال : زاحمنا بنى مناف في الشرف . حتى اذا صرنا كخرسى رهان قالوا منا نبى يوحى اليه . والله لا نرضى بربه الا ان يأتينا وحى كما يأتية فنزلت « **الله أعلم حيث يجعل رسالته** » وهو رد عليهم (بأن النبوة ليست بالنسب والمال . وانما هي

بفضائل نفسانية يخص الله سبحانه وتعالى بها من يشاء من عباده . فيجتبى لرسالته من علم أنه يصلح لها . وهو أعلم بالمكان الذى يضعها فيه(٤) .

وقد جعلها سبحانه حيث علم .

فاختار لها الزمان .

واختار لها المكان .

كما اختار لها سبحانه وتعالى الأمة التى سوف تتحمل مسئولياتها الكبار .

ثم اصطفى من هذه الأمة رجلا تجمع فيه كل ما تفردت به من صفاء الفطرة . وقوة الإرادة . ونقاء الخلق .

الزمان المناسب :

أما مناسبة الزمان : فقد كان الأمر على ما يقول الحق سبحانه .

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾

لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٥﴾

(٤) البياض - لوى .

(٥) سورة الروم آية ٢٤١

لقد طم الفساد — حينئذ وعم — حتى صار الخلق عن الحق
في فكر ذاهل . وشغل شاغل .

لقد انحلت عرى الشخصية الانسانية . وماتت عناصر
القوة فيها . بل لم يعد الانسان حينئذ مستعدا ليعيش حياته حتى
في أدنى درجات السلم الاجتماعى .

كان الحاكم — فى الأمم الأجنبية — اذا احتجم . او فصد له .
او تناول دواء .. كان ينادى فى الناس :

الا يمارس انسان من رجال البلاط .. او سكان العاصمة
عملا . ويكونون عن كل صناعة أو ممارسة نشاط . واذا عطس (٦)
فلا يسوغ لأحد من رعاياه أن يدعوه له (٧) .

فأنظر كيف يتوقف دولا ب العمل من أجل وعكة تلم برجل
يحاول أن يجعل من ذاته محورا يدور فى فلكه الكون !

واذن فقد كانت السلبية هى القاسم المشترك فى هذه
الأمم الأجنبية :

(اعتادوا مجارة الاوضاع ومسايرة الزمان :

لا يهيجهم ظلم . ولا يستهويهم حق . ولا تملكهم فكرة . او
دعوة تستحوذ عليهم استحوذا يتناسون فيه انفسهم . ويجازفون
فيه بحياتهم ولذاتهم (٨) .

(٦) عطس من باب ضرب وفى رواية من باب قتل . ومعطس وزان مجلس :
الأنف .

(٧) من السيرة النبوية للنسابة ٤٨ : ٤٩

(٨) المرجع السابق ٤٧ .

البيئة المناسبة :

فى هذا الوقت بالذات يهيم الله تعالى الامة العربية لتتحمل مسئولية الانتقاذ . . انتقاذ العالم بما حباها من خصائص صارت بها اسلحة القدر التى قوض بها بنيان الظلم . واقام على مساوئها صرح العدل والنظام .

وبهذا كانت الجزيرة العربية خير مكان . . وكان العرب هم الصفوة الصالحين لعمارة الدنيا . واصلاح ما فسد منها .



الموقع الجغرافى :

لقد احتلت الجزيرة العربية على سطح الكرة الأرضية موقعا جغرافيا متميزا . يجعلها جديرة بأن تكون مركزا لدعوة تعم العالم . وتخطب الأمم .

ومن هذا الموقع الفريد تصبح مركز الدائرة على مستوى العالم كله . ومن ثم يشع نورها فى كل زواياه ومساريه . يعينها على ذلك ما يتمتع به ذلك الموقع الوسط من بعد عن التأثير بأى من الحضارات أو الديانات المحيطة بها . فكان ذلك فضلا من الحق سبحانه وتعالى : لتمهيد جو الحياة . وصهر العوامل القوية لابرار الحدث الجلل الذى يغير وجه التاريخ تغييرا أصيلا شاملا . وهذه مرحلة الاصطفاء لقنوات التجدد الانسانى من اعلى الذرى الى وادى الوجود الواقعى .

وهى ايضا مرحلة التربية والحضانة لمن سيجمل لواء الرسالة الخاتمة الخالدة . التى جاءت لتصحيح اغاليط الحياة فى

نظامها الاجتماعي . ولتقييمه على دعائم التوحيد الخالص لله الخالق : وتجعل من هذا التوحيد ركيزة للقيم الخلقية . والفضائل الانسانية(٩) .

خصائص الأمة العربية حاملة الرسالة :

لخص الشيخ العلامة أبو الحسن الندوي خصائص العرب فيما يلي(١٠) :

١ - (اختار الله العرب . ليتلقوا هذه الدعوة أولا . ثم يبلغوها الى ابعد انحاء العالم .

لان الواح قلوبهم كانت صافية . لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة يصعب محوها وازالتها . شأن الروم . والفرس . واهل الهند الذين كانوا يتيهون ويزهون بعلومهم وآدابهم الراقية . ومدنياتهم الزاهية . وبفلسفاتهم الواسعة .

فكانت عندهم عقد نفسية وفكرية . لم يكن من السهل حلها .

اما العرب : فلم تكن على الواح قلوبهم الا كتابات بسيطة . خطتها يد الجهل والبداءة . ومن السهل الميسور محوها وغسلها . ورسم نقوش جديدة مكانها كانت الامم المتمدنة اصحاب جهل مركب .. بينما كان العرب اصحاب جهل بسيط .

(٩) الشيخ محمد الصادق عرجون . محمد رسول الله ج ٢١/١

(١٠) راجع السيرة النبوية للندوي ٤٤ وما بعدها .

٢ — كانوا أصحاب فطر صافية . و ارادة قوية لا تعرف
الالتواء . اذا انكشف لهم الحق اعتنقوه والا حاربوه .
وهو ما عبر عنه سهيل بن عمرو في صلح الحديبية .
(والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت
ولا قاتلناك (١١)) .

٣ — من خصائصهم : الصرامة والصرامة لا يخدعون أنفسهم
ولا غيرهم . اعتادوا القول السديد . والعزم الاكيد .
٤ — كانوا بمعزل عن الترف وما يترتب عليه من فساد .
٥ — كانوا أصحاب صدق وامانة وشجاعة .
٦ — امة حرة لم تخضع لأجنبى أبدا . نشأت وعلى هيامها
الحرية . والمساواة وحب الطبيعة .

من أجل ذلك كان العرب على موعد مع القدر الذى أعدهم
لقيادة الانسانية .

لقد دخل العرب بهذه الخصائص فى الاسلام فصقلها واطلقها
فى الاتجاه الصحيح تنشئ حضارة جديدة .

(١١) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب الحديبية .

وقد كان (اعلی ما عندهم من هذه الاخلاق . واعظمها
نفعا بعد الوفاء بالعهد هو : عزه النفس . والمضى في العزائم .
اذ لا يمكن جمع الشر والفساد . واقامة نظام العدل والخير
الا بهذه القوة القاهرة . وبهذا العزم الصحيح (١٢) .
وبالله التوفيق

محمود محمد عماره

محمّد
صلى الله عليه وسلم

- ١- نسب
- ٢- نشأته
- ٣- كيف أعده الله تعالى لحمل الرسالة

محمد صلى الله عليه وسلم

١- تسب

روى الترمذى :

انه صلى الله عليه وسلم قام على المنبر فقال :

من انا ؟

فقالوا انت رسول الله عليك السلام .

فقال : انا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

ان الله خلق الخلق . ثم جمعهم فرقتين .. فجعلنى فى
خيرهم فرقة . ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة .

ثم جعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتا وخيرهم نفسا (١٣) .

(١٣) الترمذى ٢٣٦/٩ كتاب المناقب .

انه خيار من خيار من خيار .

قال الله تعالى :

« الله أعلم حيث يجعل رسالته »

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان تلك الأسئلة عن صفاته عليه الصلاة والسلام .

قال : كيف نسبه فيكم ؟

قال : هو فينا ذو نسب .

قال : كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها . يعنى في أكرمها أحسابا . وأكثرها قبيلة . صلوات الله عليهم جميعين .

فهو سيد ولد آدم وفخرهم في الدنيا والآخرة . ابو القاسم .
وأبو ابراهيم . محمد . واحمد . والمأحى الذى يمحى به الكفر .
والعاقب الذى ما بعده نبى . وخاتم النبيين . والفتاح . وطه .
ويس . وعبد الله (١٤) .

خصائص البيت النبوى :

ولد صلى الله عليه وسلم في بيت استجمع خلال الخير والبر . ومع أن والده « عبد الله » توفي دون الثلاثين . الا أنه خلف من ورائه ذكرى طيبة بعد هذا العمر القصير .

وقد نوهت بأخلاقه الطيبة زوجه «آمنة الابيه الوفية حين رثته
لما بلغها نبأ وفاته :

عفا جانب البطحاء من ابن هاشم
وجاور لحدا خارجا في الفماغم
دمته المنايا دعوة فأجابها
وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره
تعاوره أصحابه في الشراحم
فان تك غالته المنايا وريبها
فقد كان معطاء كثير التراحم(١٥)

ووفاء لذكرى زوجها الحبيب ذهبت لزيارته . قاطعة مع
يتيمها وحاضنته خمسمائة كيلو مترا !

وهكذا تتحدد ملامح البيت النبوى . . وتتضح الأصول
الكريمة فيما كان يتمتع به أبوه من . كرم . . وتراحم . . وما اختصت
به أمه من وفاء . . واذا كان عبد الله قد خلف « خمسة أجمال .
وقطعة غنم . وجارية حبشية اسمها « بركة » أم أيمن فقد أسعد
الدنيا بمولود صار من بعد نور الحياة وروحها . ثروتها الغالية
التي تنهى بها .

(١٥) طبقات ابن سعد ٦٢/١ ط الشعب .

٢- نشأته

كانت عادة سكان الحضر أن يلتمسوا المراضع لأولادهم في البادية . وقد ثاءت حكمته تعالى أن يسترضع صلى الله عليه وسلم في « بنى سعد بن بكر » .

وكانت لها شهرة في المراضع . وفي الفصاحة .
الى جانب ما يحققه الفضاء المتراحب من :

- (أ) اكتساب ما في أخلاق البادية من سلامة واعتدال .
- (ب) البعد عن أمراض الحواضر .
- (ج) التمتع بالهواء الطلق .

وبذلك :

- ١ — يقوى الجسم .
- ٢ — تشتد الأعصاب .
- ٣ — تصح اللسنة .

ولهذا — كما يقول الشيخ محمد الغزالي تنمو الشخصية .
وتتزود بالأخلاق الطيبة رويدا .

وقد صاحبته العناية الالهية منذ لحظة ميلاده .

هذا الميلاد الذى كان بشارة تومىء الى أن بعثا جديدا
قد طلع فجره .

لقد ولدته أمه فى يسر وسهولة .. وضيئا .. نظيفا ..
وضاح الحيا .

حلو القسّمات .. فكان ذلك ارهاصا بها سوف تكون عليه
الحياة فى ظلّه من جمال .

ثم اقترن هـذا المولد منذ لحظته الأولى بمعنى الحرية التى
جاء ليتوج بها رأس الانسان المسير المستعبد .

فكان ذلك بشارة بما سوف تبلغه الانسانية على يديه
من كمال :

يروى ان عمه ابا لهب .. لما بشرته مولاته نوبيه بولادة
النبي صلى الله عليه وسلم .. استخذه الفرح .. فأعتقها .

حادثة شق الصدر :

جرت سنة الله مع انبيائه ان يكرمهم بالمعجزات الخارقة
قبل ان يبعثهم للناس حتى تنهى العقول بعد ذلك لقبول دعوتهم .

وتذكر الروايات التاريخية عن محمد وهو فى الثالثة من عمره
انه كان مع أخيه من الرضاع خلف بيونهم فعاد أخوه الطفل السعدى
يقول لأمه وأبيه : ذلك أخى القرشى قد أخذ رجلا ن عليها ثياب
بيض فأضجعه فشق بطنه فهما يسوطانه (أى يقلبانه) تقول
السيدة حليلة : « فخرجت أنا وأبوه فوجدناه قائما ممتقعا وجهه
فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يا بنى ؟ قال : جاعنى رجلا ن
عليها ثياب بيض فأضجعانى فشق بطنى فالتمس فيه شيئا
لم أدر ما هو ؟

وقد خشيت السيدة حليلة على محمد أن يكون قد أصابه شيء فأرجعته الى امه آمنة في مكة وقصت عليها النبأ العجيب فطمأنتها آمنة قائلة : ان لابنى هذا لشأنا فلم أكن أحس أثناء حملته بشيء مما تجده الحوامل . وقد رأيت وأنا أحمله كأن نورا خرج منى فأضاء لى قصور الشام . ثم طلبت اليها أن تعود به الى بادية بنى سعد مرة ثانية فعادت به حليلة وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره .

وشق صدره بصورة حسية رمز يبقى في أذهان الناس دليلا على أنه نبى هذه الامة ولم يكن المقصود به تجريده كلية من دواعي البشر . . وانما كان فرارا به من وساوس الشيطان حتى لا تعوقه عن الوصول الى الكمال .

وليكون جهاده — كما قيل — من بعد في الترقى الى أعلى .
بدل أن يبذل طاقته في مقاومة التدلى .

وليستطيع وقد طهرت نفسه أن يطهر غيره .

ويوضح هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم :
(ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن . وقرينه من الملائكة .

قالوا : وياك يا رسول الله ؟ قال : وياى . الا ان الله أعاننى عليه فأسلم . فلا يأمرنى الا بخير (١٦)) .
اي انقاد لى وأذعن فصار لا يهjis بشر .

بشر من البشر :

ومعنى ذلك أنه ظل بشرا من البشر . فيه ما فيهم من غرائز ودوافع . ولكن عناية الله تحرسه فلا تزل قدمه أبداً .. وإذا ما اقترب منه الشيطان فسوف يخنس راجعا .. وهو حسير . على ما يقول سبحانه وتعالى :

○ ————— ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا

هُم مُّبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

وإذا كان شأن المتقين مع الشيطان أنه لا يأخذ منهم الا كما تأخذ النسمة من الطود الأشم .. فكيف يكون الحال مع امام المتقين صلى الله عليه وسلم ؟

انه بشر . يهم كما يهم غيره . منبعثا الى التمتع بلذات الدنيا .. لكن الهداية الالهية تقطع عليه الطريق ليظل في مكانه الرميع .

قال صلى الله عليه وسلم :

(ما هممت بشيء مما كانوا في الجاهلية يعملونه غير مرتين : كل ذلك يحول الله بينى وبينه .

ثم ما هممت به حتى اكرمنى الله بالرسالة .

(١٧) سورة الاعراف آية ٢٠١

قلت يوما للغلام الذي يرعى معى باعلى مكة :
لو أبصرت لى غنمى حتى ادخل مكة . واسمر كما يسمر
الشباب .

فقال : افعل
فخرجت . حتى اذا كنت عند أول دار بمكة . سمعت عزفا .
فقلت :

ما هذا ؟
فقالوا : عرس .
فجلست أسمع .
فضرب الله على أذننى . ففتمت . فما أيقظنى الا حر
الشمس .

فعدت الى صاحبنى فسالننى . فأخبرته .
ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك .
ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة .
ثم ما هممت بعده بسوء (١٨) .

انه غلام كسائر الغلمان تحن نفسه الى سماع ما يشتهون من
القناء . ورؤية ما يؤثرون من السمر .

(١٨) رواه ابن الاثير والحاكم عن على بن ابي طالب وقال صحيح على شرط
مسلم .

لكن رحمة الله تعالى سبقتة الى هناك .. فكان سلطان النوم .. رسول هذه الرحمة : لقد ضرب الله على اذنه فلم يسترسل في السماع الى ان ايقظته الشمس .

* * *

ونلاحظ من اخلاق زملاء المهنة تلك السحاحة من زميله الذى ناب عنه في الحراسة طول الليل .. ولم يتبرم .

ثم لما استأذن منه ليلة اخرى .. ايضا ما تبرم .. ولم يقترح ان تكون نوبته في السماع تلك الليلة مثله من قبل .

ومع ما يسجله الموقف من تعاون وتجاوز بين الخطاء الذين يستنزلون البركة بهذه السحاحة .. الا ان الموقف كان اكبر من ذلك :

كان اعدادا الهيا لمحمد صلى الله عليه وسلم وبصورة عملية قبل ان تتحول حياته الى مراحل جهاد ومعاناة .. تشرق الفضائل في نفسه وفي بواكير حياته كما يشرق ضوء الشمس في الصباح .. ثم يكون بعد ذلك قرصا وهاجا مكتملا يملأ الدنيا بالنور والخير .

محمد على الفطرة :

كان شيئا طبيعيا ان تتحرك رغبة صبي الى مثل ما يلهو به الصبيان .

أما بالنسبة للأصنام فلم تحدثه نفسه بالمثل أمامها .. بل
كان يكره سماع الحلف باللات والعزى .

و ذات يوم .. وقع تحت تأثير ضاغط ليحضر عيداً من أعياد
الأصنام .

ولقد قاوم أهله جميعاً .

ولما وافقهم على حضور العيد .. كان حضوره درسا
الها كشف الى أى مدى كان محمد على الفطرة :

روى ابن سعد فى الطبقات عن ابن عباس :

حدثتني أم أيمن قالت :

كانت « بوانة » صنفا تحضره قرينش تعظمه .

تنسك له النسائك (١٩) — أى تذبح له الذبائح .

ويخلقون رموسهم عنده يوما . الى الليل وكان ذلك يوما
فى السنة . وكان أبو طالب يحضر هذا اليوم مع قومه . وكان
يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ان يحضر ذلك العيد
مع قومه . فبابى حتى رأيت أبا طالب غضب عليه . ورأيت عتاته
غضبن عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقتلن : ما تريد يا محمد
أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعا . قالت أم أيمن : فلم

(١٩) نسك . من باب ، قتل . والمنسك بفتح السين وكسرها : المكان
أو الزمان الذى تذبح فيه النسكة وهى الذبيحة . ومنسك الحج : مباداته .
ومعنى تنسك النسائك . تذبح الذبائح .

يزالوا به حتى ذهب . فغاب عنهم ما شاء الله . ثم رجع الينا
مرعوبيا فزعاً . فقال له عماته : ما دهك ؟ قال : انى اخشى ان
يكون بى لم — فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان . وفيك من
خصال الخير ما فيك . فما الذى رايت ؟

قال : رايت كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل ابيض
طويل يصيح بى وراى يا محمد . . لا تمسه . قالت ام ايمن :
فما عاد الى عيد لهم حتى تنبأ .

وتأمل كيف يواجه الصبى الصغير مختلف الضغوط كى يحضر
مع قومه هذا الحفل العايب .

فعنه ابو طالب يلح عليه ليذهب معهم .

ثم يفضب عليه حين يرفض مشاركتهم .

وايضا : فعماته يهددنه بما يمكن ان يلحقه من اذى الالهة
التي لا يعظمها مثلهم . . ويحاول دائما تجنبها .

ثم يلحن له غاضبات بعدم اكترائه لهم جميعا . وما ينطوى
عليه من اهانة لا تحتل السكوت .

ويذعن الصبى الصغير . . مجاملة . . وامام اللاحاح
الموصول .

وكان الحق تعالى يدبر له . فأراه ما اراه . . ولم يقدر له
ان يشاركهم فيها يفعلون من مجون .

وخرج بعون الله اكبر اصرارا على موقفه الراض لهذا العبث .

وانحسرت البيئة كلها .. بكل ضغوطها .. معلنة افلاسها
إزاء الإرادة العنيدة التي فرضت على البيئة احترامها .

ولقد كان الصبى هنا عودا طريا .. مال مع الريح مكرها ..
وحقق أملهم مبدئيا بذهابه في صحبتهم ولكن العود لم ينكسر ..
وخرج من التجربة أشد تحررا من ضغط المجتمع .. وأكبر
استعلاء ونفورا من تقاليده .

ولا بأس أحيانا من المرونة معاشة المجتمع أكثر جمعا وأقوى
عدة .. بعدما يعلن الحق مبداه .. ويظهر مدى إصراره عليه .
والا .. فان الموقف المتحدى السافر .. منذ اللحظة الأولى ..
ربما يؤلب عليه الجميع .. وتضيع فرص التفاهم .. بقدر ما تسفر
المرونة في النهاية عن انتصار الحق .. الذي بدأ جولته من الصفر ..
متدرجا بالحكمة .. الى أن يجيئه نصر الله والفتح .

وننتساءل أخيرا :

ما هي الأسباب التي جاء بها نصر الله والفتح ؟ .

١ — انها كما قلنا مرونة ومجاملة للمجتمع — لا على حساب
العقيدة طبعاً — بمعنى انها خطوة الى الوراء يخطوها الداعية . .
حتى اذا قفز من بعد .. كانت القفزة محكمة .

٢ — ثم ألم تر الى قول عماته له إسا جاء فزعا :

(وما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير

ما فيك) ؟

اى انه يواجه المجتمع لا بالكلام المعسول .. أو القبح
الصاحب .. ولا بالسلاح يفرق به الجماعة ..

وانما .. كان له ماض مشرف .. وهو رصيده الذي يؤيده
فى موقفه ويفرض على الآخرين احترامه :

اى ان مواقفه المشرفة .. واعماله الصالحة تشكل كل
واحدة منها جنديا يقف الى جانبه .. وهذا ما شهدت به عماته ..
بل شهد به اعداؤه جميعا .

ان الاصرار على الحق له ثمنه المدفوع مقدما :

نفس متفتحة مقبلة على الحياة والاحياء ..

على ان يكون النشاط الاجتماعى ترجمة هذا الوجدان الصافى .

ولا بأس من مشاركة المجتمع فى بعض مظاهره .. كمرحلة
اولية ينفخس بها الداعية فى مشكلات امته .. ليتمكن من الرؤية
الكاشفة لعيوب هذا المجتمع .. ثم معالجتها عمليا .. وعلى مرأى
ومسمع منه ..

ان الخطبة البليغة من فوق المنبر العالى .. لها اثرها
ولا شك .. فاذا اضيفت اليها الحركة العملية البانية الهادية ..
كان ذلك خيرا للدين والمجتمع .

طفولة على مستوى الرجولة :

إذا حرم الطفل حظه من الحنان أفقده الحرمان القدرة على التعامل مع الناس بنجاح .. مدفوعا بقسوة يجدها في قلبه حسين لم تسمع أذنه كلمة ندية .. ولم تمسح رأسه يد حانية .

فإذا كان هذا الطفل يتيما... فان الخافق المعذب في صدره سيتحول سوط عذاب يصبه على مجتمع قسا عليه .. فلم يعنه على بره .

* * *

وحسين يأخذ هذا الطفل نصيبه الاوفى من الرعاية .. فان مواهبه تتفتح كالكمام الزهر .. لتنتشر العطر في كل اتجاه .

وإذا اتاح له ان يمارس حظه من اللعب البريء .. المحروس بالقيم العليا .. فانه يستوفى عناصر الرجولة التي ترشحه لها حين تخطو به اليها .. بعطفنا .. وتقديرنا للكاتبة .

ولقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من رعاية عمه ابي طالب .. ونال في ظله من التقدير ما اوفى به على الغاية :

(لما توفي عبد المطلب ضم ابو طالب النبي صلى الله عليه وسلم اليه : وحاطه اتم حياطة . ورق عليه . واحبه حبا شديدا . لا يحبه ولده .

وكان لا ينام الا الى جنبه . ويخرج فيخرج معه .

وصب به ابو طالب صبابه لم يصب مثله بشيء قط .

وقد كان يخصه بالطعام .

وكان أبو طالب لا مال له . . الا قليلا .

وكان يقرب الى اولاده تصبيحهم — فطورهم — اول البكرة .
فيجلسون وينتهبون — الاكل — ويكف رسول الله صلى الله عليه
وسلم يده لا ينتهب معهم .

فلما رأى أبو طالب عزل له طعامه على حده .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصبح في أكثر أيامه فيأتي
زمزم فيشرب منها شربة . فربما عرض عليه الغداء فيقول :
لا أريده . . انا شبعان .

وكان أبو طالب اذا أراد ان يغديهم او يعشيهم يقول :
كما انتم حتى يحضر ابني . فيأتي رسول الله صلى الله عليه
وسلم فيأكل معهم فيفضلون من طعامهم .

وان كان لبنا شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم اولهم .
ثم يتناول العيال القعب — الاناء — يشربون منه . فيروون عن
آخرهم من القعب الواحد — وان كان احدهم ليشرب تعباً وحده —
فيقول أبو طالب . انك لبارك .

وكان اولاد أبي طالب يصبحون رمصاً — اي جهداً لوسخ
في أعينهم — غمصاً عمشاً — يسيل دمع عيونهم —

شعثاً — تلبد شعرهم فهو وسخ لقلة تعهده بالدهن —

ويصبح محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم صقيلاً .

دهينا . كحیلا . وكان ابو طالب له وسادة یقعسد علیها . فجاء
النبي صلى الله علیه وسلم یوما فقعسد علیها .

فقال ابو طالب : والذي یعبد ان ابني لیحسن بنعیم (٢٠) .

فانمت ترى الیتیم هنا یعیش بین رحماء ..
بل ویؤثره الوالد علی بنیه من صلبه ایثارا ظهرت اماراته فی :
نومه الی جانبیه .

صحبتیه له فی سفره .
وایثاره له بالطعام . وبالاكرام .
ومن شأن هذه الرعایة ان تنسح الطريق امام مواهب الیتیم
الذى آواه الله تعالى فی هذا البیت .. لتستوی علی سوتها .
ثم لتمت الحیاة من بعد باطیب الثمرات .

ولسكن . . !

ولكن هذا التقدير لم یكن اعتبارا .. فقد استحققه الصبی عن
جدارة بهذه الخصائص التى زاهم بها الرجال .

انه یستقبل حیاته . مشرق الوجه .. باسم الثفر ..

وبینما یستقبل رفاته الصبح کسالى .. یقبل علیه هو
راضیا .. متفائلا .. نشطا .

(٢٠) اتحف الوری ج ١/١ وما بعدها .

بهذه الطهارة التي تحيي فيه بواعث العمل .

ثم . . . هو لا يسابق الصغار الى الطعام . . ولا ينتهبه
انتهاها . . وهو بهذا الحس الاجتماعى النظيف يدرك ان له اخوة
فى البيت . . فليس الطعام له وحده . .

ثم انه انسان . . تمسكه انسانيته ان يشارك الحيوان فى
واحدة من خصائص الحيوان !

وقد يبكر ذاهبا الى زمزم ليشرب منها شربة تغنيه عن الطعام
غناء شاهدا بأن له آمالا كئبرا تغنيه عن الاسراف فيه او جملة
هبة الاول !

وقد تنبأ له عمه بالسيادة والقيادة حين ناب عنه يوما وجلس
على وسادته الخاصة . .

انه اذن صبي . . ولكنه سوى . . استحق بهذه الخاصية
ان يأخذ سبيله القاصد الى نروة الكمال .

لكنه لا يأخذ هذا السبيل اعتباطا :

وانما هناك رعاية من عمه . . ومن اهله . .

وما اكثر الايتام بيننا اليوم . . والذين يحملون فى قلوبهم
عواطف نبيلة . . وفى عقولهم افكارا ذكية . .

لكنهم فقط فى حاجة الى اليد الحانية . . والكلمة الهادية . .

القادرة على استخراج ما فى انفسهم من كنوز يمكن ان تكون للحق
عونا .. وللمجتمع رخاء .

* * *

ولو ترك اليتيم هكذا مدحورا مخذولا .. فسوف يمتد
الاحساس بالغربة ليشمل مساحة القلب كلها ..

ومع الايام .. سوف يصفى حسابه مع مجتمع لم يدخله فى
حسابه يوما .. ان الاحساس بالغربة يقتل مواهب الصغير المتفتح
للحياة .. بل انه لينحسر بقوى الرجال .. فيحبط بفعلها ..
وكيف يتحمل الكيان الانسانى ذلك الحرمان .. بينما الغافلون
يتقاسمون النعيم .. على ما يقول احدهم .

ان عيبا على ديار المشرق ان ارحل عنها الى ديار المغرب
وغريب يعيش فيها غريبا .. بعد ما اتى قومه بالغراب
ويقاسى الظما حيال اناس — قد تقاسموا بينهم مياه السحائب

الصبى يلعب .. ولا يلهو :

وبهذه الشخصية المتفتحة النظيفة .. نزل الصبى محمد —
صلى الله عليه وسلم — ساحة اللعب مع رفاته !

لكن لعبه .. كطعامه محكوم منذ نشأته الاولى بقيم الايمان :

* * *

لقد مارس محمد حياته الأولى كأي صبي مقبل على الحياة
شاعر بما فيها من جمال معروض .. يستجيب له .. ويستمتع به ..
في حدود العقل والاعتدال قال صلى الله عليه وسلم :

حاكيا بعض ذكرياته :

(واحسنت العوم في بئر بنى عدى بن النجار)

* * *

ثم يقول صلى الله عليه وسلم :

(لقد رايتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب
به الغلمان .

كلنا قد تمرى واخذ ازاره . وجعله على رقبته يحمل عليه
الحجارة .

فانى لأقبل معهم كذلك وادبر . اذا لكنى لاكم لا أراه لكمة
وجيمة ..

ثم قال :

شد عليك ازارك . فأخذته فشددته على .

ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى . وأزارى على . من
بين أصحابى (فأنت ترى صبيا متيا . تربطه مشاعر الانتماء برفاقه
فيلعب كما يلعبون .. حتى اذا أوشك اللعب إن يدخل في نطاق
اللهو . جاءه النذير الذى لكه لكمة مؤلة حتى يسبل ازاره .

اى انه يمارس اللعب المباح مع اقاربه .. لكنه لا يسمح
للأمر الواقع ان يفرض عليه لون الحياة الجارية .
ان سياسة الأمر الواقع لا تشكل حياته . ولكن ولاءه ابتداء
للقيم . الصداقة . التى عليه ان يلتزم بها أولا .

* * *

ولاحظ ان اللكمة كانت وجيعة .. لان الخطأ الواقع ايضا
وجيع !

نهو محمد الذى سوف يكون رسولا .. وجدير بمثله ان
ينشأ على الطهر والنقاء .

ولا يخفى ما فى الموقف من درس مهم :

ان صاحب اللكمة لم يأمره باعتزال اللاعب !

وظل محمد ماضيا فى صحبة رفاقه ، الا انه كان مستورا ..

ولو انه اعتزل لما تحقق الا غائدة جزئية ناشئة عن غيابه
وعدم مشاركته اياهم فى امر لا يليق .

لكن بقاءه يلعب معهم مستورا كان مثلا حيا متحركا يترك
اثره المكورر بلا شك على رفاقه جميعا .

* * *

وقد نرى اليوم ساحات اللعب المباح وقد خيلت من شباب
مخلص حسب ان تمام اسلامه بالهروب منها .

فبدأ شاحب اللون ، ضعيف الجسم ، لا يصبر على عمل
جاد .. بينما اللاعبون اللاهون قد استأثروا دونه بالعافية !
ولو انهم نزلوا الى الساحة فمارسوا الرياضة الجلال ..
محتفظين لحظة اللعب بقيم الرجولة لأبادوا ، وعادت الفائدة
على أمتهم انتاجا وغيرا . وخيرا كثيرا . واذا كنا ننأيد الشباب
أن يعطوا أجسامهم حقها في الترفيه .. فاننا نهيب بالدولة أن تهدي
لهم السبيل .

* * *

بوابر النشاط العملي :

كان لمحمد الصبي في صباه نشاط وتقلب في البلاد . الى
جانب اسهامه قضايا مجتمعه .. وما ترتب على ذلك من اعداد
ليحمل هموم البشرية من بعد .

سياحته في البلاد :

لما بلغ سنه اثنتى عشرة سنة . تهيأ معه أبو طالب
للسفر الى الشام .

وصب — اى مال — محمد له . فأخذ يزمام ناقته وقال ..
يا عم : الى من تكلمى ؟ لا اب لى . ولا أم لى .

فرق أبو طالب . وقرر الا يفارقه .

فبلغ به « تيباء » أو « بصرى » من أرض الشام .

وتقول كتب السيرة انه مر في الطريق بأكثر من راهب —
ومنهم بحيرا — نبشروه جميعا بأنه سيكون نبيا . ثم حذروه من
اليهود الذين قد يمكرون به ليقتلوه .

وفي رواية (قال أبو طالب يعد هذه البشارة :

يا ابن أخى : الا تسمع ما يقولون ؟ !

قال : يا عم .. لا تنكر لله قدره (٢١) !

ولا شك ان ذكاء الصبى حينئذ محسوب .. هذا الذكاء
الذى ادرك مغزى هذه البشارة .. وانشأ عنده احساسا
غامضا بمستقبل غير عادى .. وعلى غير ما ألف الناس من حوله .
وانك لتدرك كيف واجه الصبى منطق عمه المادى :

لقد استنكر عمه المحكوم بالواقع المادى ان يكون ذلك الصبى
الصغير نبيا .. ويجيبه الجواب منه صلى الله عليه وسلم صادرا
عن فطرة سليمة حساسة .. شاهدة بان ذلك ممكن فى اطار
قدرة الله تعالى التى لا يعجزها شئ . مسجلا فى نفس الوقت
غربة محمد الصبى فى قومه وان كان يعيش معهم .. على ارضهم
وتحت سمائمهم .

(٢١) من حديث ابن سعد عن طريق محمد بن عقيل .

محمد بين حرب الفجار وحلف الفضول :

وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره . هاجت حرب الفجار بين قريش وقيس عيلان — وقد سميت بذلك لكثرة ما انتهك فيها من المحارم الى حد الفجور .

وقد شهد الرسول بعض ايامهم . لما اخرجته اعمامه معهم . وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم :

كنت انبل (٢٢) على اعمامى . اى : ارد عليهم نبل عدوهم اذا رموا بها (٢٣) .

* * *

اما حلف الفضول :

فقد كان من شأنه (ان تداعت قبائل من قريش . فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان . لشرفه وسنه .

وصنع لهم يومئذ طعاما كثيرا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ معهم .

فاجتمعت بنو هاشم واسد . وزهرة وتيم . وتعاقدوا وتحالفوا بينهم بالله :

لا يظلم أحد بمكة : غريب ولا قريب . ولا حر ولا عبد . الا كنا جميعا مع المظلوم على الظالم . حتى نأخذ له حقه . ونرد اليه مظلمته ممن ظلمه : شريفا او وضيعا . . منا او من غيرنا .

(٢٢) وفي رواية انبل .

(٢٣) سيرة ابن هشام .

وفي ذلك يقول الزبير :

ان الفضول تحالفوا وتمسكوا
الا يقيم بطن مكة ظالم
امر عليه تعاودوا وتوائقوا
فالجار والمعتز منهم سالم

* * *

وفي بيان قيمة الحلف روت عائشة رضى الله عنها قالت :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

- لقد شهدت في دار « عبد الله بن جدعان » حلف الفضول .
 - ما لو دعيت اليه اليوم لأجبت . وما أحب أن أرى به حمر النعم (٢٤) .
 - أجل لم تكن استجابته صلى الله عليه وسلم واحدة .
- في الموقنين :

ففيما يتعلق بحرب الفجار :

فقد كانت ضد طبيعته الانسانية المسألة .

ولكن ما الحيلة وقد أخرجه أعمامه أخرجاً . ولم يكن
في الموقف الذى يتيح له الرفض .

... وما هو ذا صلى الله عليه وسلم يؤدى دوره .

فيحمل النبل الى أعمامه مرة ..

تم يباشر الرمي بنفسه أخرى .

لكنه في الحالين لم يكن مطمئنا الى ما يفعل .

ولقد سجل بهذا التعليق الشريف ندمه .. وكم كان يؤد

ان لم يكن له في هذه الحرب وجود .

اما بالنسبة لحلف الفضول :

فقد كان سعيدا ان شارك فيه .

فلك بأن اهداف الحلف الاصلاحية تنسجم مع نفسه

المطبوعة على الخير .. وتتفق مع منهجه في اقرار العدل . وحقن

الدماء . والوقوف الى جانب المظلوم .

ومن ثم يذكر حلف الفضول بمشاعر الاعتزاز والتقدير .

مفضلا اياه على اقل ما في الحياة وهو :

حمر النعم .. اعلاها قيمة .. واعلاها ثمنا ..

لقد كان صلى الله عليه وسلم رؤفا رحيبا بالمؤمنين .. بل

كان رحمة للعالمين . ومن ثم .. فقد كان عزيزا عليه ان تراق

دماء الانسان حيثما كان .. فكان نبي الاسلام .. والسلام ..

معبرا بهذه النزعة الانسانية الرحبة عن اهليته صلى الله عليه

وسلم وحده لانتقاذ العالم المحروب .

والامر على ما قيل بحق :

(ان طريق الفرح بهذا الحلف يظهر في ثنايا الكلمات التي
عبر بها رسول الله عنه :

فان الحمية ضد اى ظالم مهما عر .

ومع اى مظلوم مهما هان .

هى روح الاسلام الامر بالمعروف . الناهى عن المنكر .
والواقف عند حدود الله .

ووظيفة الاسلام ان يحارب البغى فى سياسات الامم .

وفى صلات الافراد على سواء(٢٥)) .

وليت العرب اليوم يفيقون على صوت الذكرى يناديهم ..
ويبين لهم ما فى ضمير امتهم من فجدة .. تنصر المظلوم .. وشجاعة
تأخذ على يد الظالم .. وحفاظ على الدماء العربية ان تسيل ويبد
عربية .. لا غربية .

* * *

من رعى الغنم الى قيادة الامم :

قال ابن اسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول :

ما من نبى الا وقد رعى الغنم .

قيل : وانت يارسول الله ؟ قال : وانا .

قال السهيلي بعد ذكر صحاح الاحاديث التي ثبت فيها انه صلى الله عليه وسلم رعى الغنم .

وانما جعل الله هذا في الانبياء تقدمة لهم : ليكونوا رعاة الخلق . ولتكون ائمتهم رعايا لهم (٢٦) .

* * *

وقد ثبت في الصحاح انه كان يرعى الغنم في مكة على قراريط يأخذها من اهلها .

وقد قيل في معنى القراريط : انها جمع قيراط . وهو جزء من الدرهم او الدينار .

وعلى ذلك فمعنى الحديث : ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يرعى الغنم على الاجرة .

وقيل انه اسم مكان بمكة المكرمه .

وعلى كل . فرعى الغنم كما قيل :

كسب شريف . وتربية نفسية . وترويض على العطف على الضعفاء . واستنشاق للهواء النقي الصافي . وتقوية للجسم .
وفوق ذلك كله فهو : اتباع لسنة الانبياء (٢٧) .

(٢٦) ابن هشام ح ١٧٨/١ ط. الجمهورية .

(٢٧) السيرة النبوية للنسفي/١٢٢

ولقد أتاح رعى الغنم للرسول فرصة ذهبية اكتملت فيها ملكاته النفسية وقواه الجسدية والعضلية مع الغنم .. والصحراء .. والفضاء .

وكان ذلك تأكيداً لاستقلال ذاته .. واصراره على ان يأكل من عمل يده .

وإذا كان عمه أبو طالب قد فعل أفضل ما يليق به حين تكفل بمعاشه .. فقد كان رد الفعل عند محمد ان يفعل أيضاً أفضل ما يليق به وهو ان يعمل .. لينفع نفسه وغيره .

وتلك سنة عملية من سننه نهيى بشباب اليوم ان يعوها .. لتأخذ مكانها في طبيعة السنن الشريفة .

* * *

فلما استقرت حياته في الصحراء راعياً حقق له ذلك العمل :

١ - في الصحراء هدوء ينسجم مع نفسه التى تعشق السلام .

٢ - وفيها الاستمتاع بجمال الطبيعة البكر والذى لم تفسده يد الانسان .

٣ - ثم انها فرصة يتأمل فيها الراعى ملكوت الله تعالى في الليل اذا سجد . والنهار اذا تجلّى .

٤ - وقد أتاح رعى الغنم لرسول الله صلى الله عليه وسلم خبرة زراعية :

روى ان بعض اصحابه مر عليه بشر الاراك فقال لهم :
عليكم بما اسود منه . فانى كنت اجتنيه اذا انا راعى غنم .
وفي رواية : فانه اطييه .
ه — على ان فى رعى الغنم اخذا للنفس بما لابد منه من
فضائل تعين على حسن القيادة :
ومنها : الصبر . والناة . والرانة . ورعاية الضعيف :
ويعنى ذلك اهمية سياسة الغنم فى تسليح الانسان بقيم
لا بد منها فى سياسة الامم .
ولا بأس ان ياخذ اجرا على الرعى .. فهو عمل شريف ..
وما اكثر المسلمين الذين يستنكفون اليوم أن يباشروا عملا من هذا
النوع بحجة ان ذلك يخدش كرامتهم .
وفى نفس الوقت يباشرون من الاعمال ما يناقض سنة رسول
الله صلى الله عليه وسلم . استرضاء لبيئة جذبتهم فاستعبدتهم .

* * *

اقتاجر الامين :

فى السنة الخامسة والعشرين من مولد محمد صلى الله
عليه وسلم .
(قال ابو طالب لابن اخيه النبي صلى الله عليه وسلم (٢٨) .)

(٢٨) اتحاف الورى ج ١/١٣١ وما بعدها .

انا رجل لا مال لى . وقد اشتد الزمان علينا . وهذه غير
تومك قد حضر — اى حان — خروجها الى الشام .

وخديجة بنت خويلد تبعت رجلا من قومك فى غير لها .
فلو جئتها فعرضت نفسك لاسرعت اليك .

فبلغ خديجة ما كان من محاوره عمه له . فأرسلت اليه
فى ذلك وقالت :

انا اعطيك ضعف ما اعطى رجلا من قومك .

فقال ابو طالب : هذا رزق قد ساقه الله اليك .

وفى رواية ان خديجة هى التى عرضت عليه كما بلغها عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق الحديث .
وعظم الامانة . وكرم الاخلاق .

* * *

لقد عاش محمد المبى فى كنف عمه ابنى طالب عزيزا موفورا
الكرامة .. على النحو الذى مريك .

لكن الزمان قد تغير واشتدت وطاته على رب الأسرة .
فضاقت يده عن الاتفاق .

فكان من الوفاء ل محمد تدبير عمل شريف ينى بحاجاته ..
بقدر ما يخفف العبء الضاعط على كاهل عمه .

فكان أن صارح ابو طالب محمدا باغتيابه بها وافقت عليه

السيدة خديجة بنت خويلد حينما علمت برغبة محمد في الاشراف على تجارتها مع العير المتأهبة للسفر الى الشام .

وهكذا يواجهه العم بشدة الموقف .. ويعطيه في نفس الوقت كيف يتحمل المسؤولية في بواكير حياته . وان عرض الفتى نفسه على آخر طالبا عملا امر طبيعى لا يشين الرجل .. وانها الذى يشينه حقا . ان يرى الزمن يضغط بشدة على والده .. ولا يحرك ساكنا .. راضيا ان يعيش عائلة على حساب المتاعب والمصاعب التى يلاقيها والده !!

ويلاحظ ان ابا طالب لم يتركه حائرا يصارع الظروف وحده . وانما وقف معه . فدله على الطريق . واقتراح عليه نوع المهنة (٢٩) . وجهة العمل .

ولم تهبط عليه فرصة العمل جزافا .. ولكن سمعته الطيبة هى التى رشحته للوظيفة عن جدارة واستحقاق .

فلم تكذ خديجة تسمح بالفكرة حتى اسرعت هى اليه وكان رجاؤها حارا ان يقبل العمل لها .. بدليل ما عرضته عليه من رزق فاق رزق غيره ممن عمل لها من قبل .

* * *

(٢٩) المهنة بالفتح . والكسر فى لغة .

ولقد ادى التاجر الأمين محمد دوره بصديق وامانة فنجح
نجاحا منقطع النظير : وذلك بانه :

- ١ — باع تجارته النى خرج بها .
 - ٢ — وربح ضعف ما كان يربح غيره .
 - ٣ — ثم اشترى ما رأى شراءه لازما .
 - ٤ — فلما قدم لخديجة كشف الحساب .. الى جانب
ما اخبرها به غلامها ميسرة رفيقه فى الطريق .
- وحينئذ برزت لها شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ..
الصادق .. الأمين .. وفوق ذلك ما راته وما سمعت به من
رعاية الهية تحيط به كلها غدا أو راح .
- وعندئذ اختمرت فى عقلها وقلبها فكرة الزواج من محمد صلى
الله عليه وسلم . لما رجعت فى ذلك من الخير .
- ولقد كان تقرير ميسرة الذى قدمه الى خديجة .. والنى
رفعته بدورها الى ابن عمها ورقة بن نوفل كان هذا التقرير
فاتحة فصل جديد من فصول حياته الشريفة يعتبر بحق مثالا يحتذى
لن أراد من شبابنا أن ينسج على منواله .

ان رسولنا الكريم لم يرض لنفسه ان يكون عالة على
غيره .. ولكنه دخل معركة العيش برأس ماله وهو : السمة
الطيبة .. والخبرة الصادقة .. فتحت له الابواب .. فتقدموا
أيها الشباب .. فاعملوا .

فكما أن السماء لا تمطر فضة ولا تمطر ذهباً .. فهي
كذلك لا تمطر سكناً ولا زوجة .

وضريبة النجاح .. أن تخوض غمرات الكفاح .

* * *

قصة زواجه من خديجة

أرسلت خديجة صديقتها « نفيسة » دسيساً إلى النبي صلى
الله عليه وسلم فقالت يا محمد :

ما بمنك أن تتزوج ؟

قال : ما بيدى ما أتزوج به .

قالت : فان كنيت ذلك ؟ ودعيت إلى المال والجهل والشرف
والكفاءة .. ألا تجيب ؟

قال : فمن هي ؟ قالت : خديجة .

قال : وكيف لي بذلك ؟ قالت : على .

قال : افعل .

فأخبرتها فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا . وأرسلت
إلى عبيها عمرو بن أسد ليزوجها (٣٠) .

(٣٠) اتحان الوري / ج ١ / ١٢٥ - ١٢٦

كانت خديجة رضى الله عنها من الشرف في ذروته .
ويكفى انها كانت تلقب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة .
وما حمل الكثير على طلب يدها .. بيد ان القدر الاعلى
ادخرها لصاحب الخلق العظيم .. صلى الله عليه وسلم .
واذا كان اختيار المرء قطعة من عقله .. فقد اثبتت باختيارها
محمدا سلامة تفكيرها وبعد نظرها .. حين استقرت افكارها على
خير من قذفت به ارحام الامهات .
والانسان يبحث دائما عن شكله .. ومثله .

« قل كل يعمل على شاكلته »

فما تناسب من النفوس اتصل .. وما تخالف منها انفصل .
فسر التمازج والتباين في المخلوقات انما هو الاتصال
والانفصال :

والشكل يستدعى شكله . والمثل الى مثله ساكن . متجه
ومتجاوب فللمجانسة عمل محسوس . وتأثير مشاهد . والتنافر
لا يكون الا في الأضداد . والموافقة لا تكون الا في الأنداد (٣١) .

* * *

(٣١) طرق الصلوة لابن حزم .

فما الذى جذب خديجة رضى الله عنها الى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ . لم يكن حسن الصورة فقط .. وانما كما قالت هى :
(يا ابن عم : انى قد رغبت فيك لقربائك . وشرحك فى قومك .
وامانتك . وحسن خلقك . وصدق حديثك (٣٢)) .

واذن فلم تنبعث رغبة الزواج فى قلبها لنجاحه فى تجارتها .
وانما كانت للرغبة اصولها :
فهو قريبها .

وهو على خلق عظيم .

واعظم ما يتحلى به هو : الامانة .. وصدق الحديث .

ورغم فقره فقد ظلت نفسه فوق الثريا .. شرفا ونبلا ..
وقد دلت البداية على النهاية .. فقد كانت خير زوجة .. لخير
زوج .. حين جاء تقديرها للأمر وتكييفها للظروف واقميا .. مثندا .
فلما اقتنع العقل المتأنى .. منحه القلب اشواقه .

فمضى الحب يسعى على قدمين .. او يطير بجناحين حتى
بلغ سماء لا يطار لها على جناح ولا يسعى على قدم .

* * *

ولقد ولدت فكرة الزواج فى عقل خديجة وقلبها .. لتعيش

(٣٢) سيرة ابن هشام ج ١ : ٢٤٠/٢٥٥ ط الجمهورية .

ابدا .. بل ولتتخطى الزمان والمكان .. ليكون الزوجان معا في الجنة خالدين فيها .. على ما يقول سبحانه :

○ ————— ﴿ رَبِّا

وَأَدْخَلَهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿ (٣٣)

اختيار المؤمنة لشريك حياتها :

وضع لخديجة رضى الله عنها ان محمدا طراز فريد بين
الرجال . بما يتمتع به من شمائل عظام .

وتحركات في قلبها رغبة صادقة ان يكون زوجها المرتقب .
بل وعرضت هى نفسها عليه . وما تحركت هذه الرغبة التى لم
تبصح عن اتجاهها . الا بعد الدراسة والبحث الطويل .

وعلى الطبيعة بعد الاختيار فى مجال التجارة .. وهو ميدان
حساس .. من حيث تعلق النفوس بالمال وصعوبة التفات من
اغرائه . ولا يثبت امام بريقه الا اولو العزم من الناس .

لم تكن هي الرغبة المتعجلة .. او النظرة السريعة يغريها
المنصب .. او يأسرهما جمال خداع .. ثم بعدها فليكن الطوفان ..
وانما هو الادراك البصير بعواقب الامور .. في امر كالزواج ينبغي
ان يؤسس على قواعد ثابتة غير قابلة للاهتزاز

* * *

ولقد عرضت نفسها عليه .
ولا بأس ان تعرض المرأة نفسها على الرجل الشريف .
فالطيبات للطيبين .. والطيبون للطيبات .
وما اكثر الذين تقيدهم من تقاليد المجتمع قيود وأغلال . حين
يردون الفتى الصالح .. منصرفين عنه الى غيره من ذوى الجاه
والمال والعشيرة .
وربما يمسك الخجل المقنوت السنتهم فلا يطلبون الفتى
الصالح لأبنتهم الصالحة .. لأن تقاليد المجتمع لا تسمح .. وتعجب
من أناس مستسلمون لتقاليد البيئة الى درجة الخنوع .. ثم يزعمون
انهم يحبون أبناءهم وبناتهم .. لكنهم حين يختارون لهم يتصرفون
تصرف الاعداء .

* * *

وما هي ذى خديجة رضى الله عنها تضرب الامثال للناس ..
فتختار صاحب الدين والخلق وينفسها .. وفي ذلك عبرة لمن اراد
ان يتخذ الى السعادة سبيلا .

وما هو ذا عبه ابو طالب يشهد بذلك يوم اتهام زواجه صلى
الله عليه وسلم بخديجة .. ويقول :

(.. ثم ان ابن اخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل
شرفا ونبلا ومضلا . وان كان فى المال قلا . فان المال ظل
زائل . وامر حائل . وعارية مستردة . ثم قال :
« وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم . وخطر جليل » .

* * *

نقد كان محمد صلى الله عليه وسلم قليل المال .. كغيره
من الانبياء .. وبذلك تمرس على القناعة . والرضا باليسير من
حطام الدنيا .

ثم زوده ذلك بمشاعر الرقة على الفقير والرحمة بالعاجزين .
ثم رعى الغنم .. فكان ان رسخت ملكة الصبر واليقظة
والحذر فى قلبه .. وعاشى التجار ورأى ما تحفل به الاسواق من
الميل الى الحلال والحرام .. وما تضج به من ايمان صادقة
وكافبة .. فكان ان اتسع افقه .. وانكشف له الغطاء عن الوان
من الناس ما كان ليحيط بأخلاقتها علما لولا هذه المعاشة ..
ولقد رأت فيه خبيجة نموذج الرجل الكامل .. فاخترته لنفسها ..
وكان هذا الاختيار آية من آيات الله تعالى . وفضلا منه ورحمة .

* * *

كيف تم الزواج :

إذا دل اختيار خديجة على راحة عقلها .. فماذا عنده صلى الله عليه وسلم ؟

لقد قبل الرسول صلى الله عليه وسلم الزواج بخديجة رضى الله عنها قبولاً شاعداً بحكمته صلى الله عليه وسلم . وحسه البصير بمعادن البشر .

ثم هو في نفس الوقت يؤكد بطلان ما ذهب اليه المغرضون من أعداء الإسلام الذين رموه صلى الله عليه وسلم بالرغبة الملحة في الزواج من خديجة بالذات فقد كان عليه الصلاة والسلام في سن الخامسة والعشرين .. وكانت هي في سن الأربعين .. الى جانب سابق زواجها من غيره .

ولقد ظل هذا الزواج قائماً حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً . وقد ناهز النبي عليه الصلاة والسلام الخمسين من العمر . دون أن يفكر خلالها بالزواج من امرأة او فتاة أخرى . وما بين العشرين والخمسين من عمر الانسان هو الزمن التي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء . والميل الى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية .

ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم تجاوز هذه الفترة من العمر . دون أن يفكر بأن يضم الى خديجة مثلها من الاناث (٣٤) .

ويبقى سعد ذلك في قصة الزواج دروس وعبر :

فخديجة الشريفة الحرة ترسل أولا صديقتها الحميمة
« نفيسة » لتستكشف الأمر .. وتتلمس مدى رغبة الرسول في
الزواج . لتتوب عنها في تحمل ما في المواجهة من حرج .. ولتحميها
من قسوة الموقف لو لم يكن هناك قبول .. ويكشف الحوار السريع
عن حكمة الصديقة الوفية .. التي تلحح الى ائتك شاب .. قد
اكتملت رجولتك .. فما الذي يمنحك من الزواج ؟

فلما اخبرها صلى الله عليه وسلم بصراحة الأبرياء انه
لا يملك مئونة الزواج .. صارحته ايضا بأنه لا مشكلة اذن .
فلن يشكل المهر عقبة .. بالاضافة الى الجمال .. والعفة ..
والشرف .. كل اولئك بين يديك .. ولو اردت .. فلما ذكرت
خديجة رضى الله عنها .. احس بالرغبة الاصيلية نحوها .. ولكن
كيف السبيل ؟

وتحملت « نفيسة » تبعه اتمام الزواج .

وبدا الاستعداد لتنفيذ الفكرة .

* * *

أرسلت خديجة الى عمها عمرو بن اسد .. ليزوجها ..
وارسل هو ايضا الى اعمامه .

ليأخذ الزواج سمته اللائق به .. مشمولاً باعراف العرب
التي لا تجعل من الزواج نزوة طارئة تبرق في قلوبين .. ثم تخيو .

ولكنه العهد الوثيق .. يتم تحت اشراف الآباء .. اعلانا ..
ونقديرا .. وإبتهاجا .

وهذا هو الزواج .. كما ينبغي أن يكون صادرا عن التفكير ..
لا عن النظرة العجلى والنزوة الطارئة .

رسول الوحدة :

وعند بناء الكعبة اختلفوا فيمن يضع الحجر الاسود :
ادعت كل قبيلة انها أحق بوضعه .
ثم اتفقوا على تحكيم اول قادم يدخل من باب بنى شيبه .
وكان من تدبير الله تعالى أن يكون الداخل الاول محمدا صلى
الله عليه وسلم .
وقالوا : هذا الأمين . قد رضىنا بما يقضى بيننا .
فوضع رداءه . وبسطه على الأرض .
ثم وضع الحجر عليه . ثم قال :
ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل . ثم احتل الأربعة
الحجر حتى وصلوا الى مكانه فى الكعبة وأخذوا الرسول ووضعوه
فى مكانه .
وهكذا اذهب الله به الخلاف . وحقق الائتلاف .

من تجارة الدنيا الى تجارة الآخرة :

كان اشتغاله — صلى الله عليه وسلم بالتجارة — فرصة اتاحت له أن يتقلب في البلاد . وما يثمره ذلك من خبرات وتجارب عن طريق لقاءاته ومعاملاته مع اجناس مختلفة من البشر . . وفي مزدحم البيع والشراء وما يظهره من خلائق الرجال وعاداتهم . الى جانب ما توفره التجارة من ربح يصون حياته .

ثم كانت التجارة مسرحا أكد للناس مدى امانته وصدقه في مجال قل فيه الأمناء والصادقون .
وقد ظهر ذلك لخديجة رضى الله عنها مما حملها على اظهار رغبتها في الاقتران به .

. . فكان لها بتدبير الله تعالى هذا الدور الخطير . خاصة في اللحظات الاولى . التي نزل فيها الوحي الأعلى . فكانت نعم النصير . الذى ثبت اقدامه صلى الله عليه وسلم . ثم واصل الدعوة الى ربه في صحبة زوجته الوفية .

وشاءت ارادة الله تعالى أن ينتقل من تجارة الدنيا الى تجارة الآخرة . والتي تنجى من عذاب اليم . وذلك بنزول الوحي عليه . وقبل ذلك كان لنزول الوحي تمهيد نمثل في عزلته صلى الله عليه وسلم .

العزلة :

يقولون :

(اذا حال غيم الهوى بين القلوب وبين شمس الهدى تحير
السالك) .

وهكذا : كانت حياة البيئة النى نشأ فيها صلى الله عليه
وسلم : لقد حجزهم الهوى فى سجن اللذات فلم يروا طلائع النور .
ولما كان صلى الله عليه وسلم على النحو الذى عرفت :

سمو نفس . وصفاء قلب . فقد كان طبيعيا أن تتسع شقة
الخلاف بينه وبين قومه وأن يحس بالغربة بينهم . . فحبب الله اليه
الخلاء ليخلو بنفسه . ناجيا بها من معترك الحياة الصاخبة اعدادا
لها كي تتحمل دورها القريب فى صدق وامانة :

يقول الخطابى البستى مشيرا الى غربة المصلح فى وطنه :

وما غربة الانسان من شقة النوى
ولكنها والله من عدم الشكل
وانى غريب بين بسيت واهلها
وان كان فيها اسرتى وبها اهلى

يقول ابن قيم الجوزية(٣٥) :

(اذا رزقت يقظة فصنمها فى بيت عزلة

فان أيدى المعاشرة نهابة
وأحذر معاشرة البطالين فان الطبع لص
لا تصادقن فاسقاً ولا تتق اليه
فان من خان أول منعم عليه لا يفى لك

عزلة المسلم :

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال :
(أنا برىء من كل مسلم مع مشرك .

قيل : لم يا رسول الله ؟

قال : لا تراعى ناراهما .

قال ابن الأثير : أى يلزم المسلم ويجب عليه ان يبعد منزله
عن منزل المشرك . ولا ينزل بالموضع الذى اذا أوقدت فيه ناره
تلوح وتظهر لنار المشرك اذا أوقدها فى منزله . ولكنه ينزل مع
المسلمين فى دارهم .

وانما كره مجاورة المشركين لأنهم لا عهد لهم ولا امان(٣٦) .

ونضيف : أن مقاصد ذلك التباعد الفرار بالمسلم من أخلاق
المشركين حتى لا يتأثر بهم لأن الطبع يسرق من الطبع . بخلاف
ما اذا سكن فى ديار المسلمين فان رفقة الخير تزين له ذلك الخير .
وتحضه بالقدوة عليه .

في غار حراء :

كانت عزلته صلى الله عليه وسلم « في غار حراء بالذات »
فقد كان يرى الكعبة المشرفة من داخله . . فهو مرتبط بالبيت ورب
البيت حتى في عزلته . وكانت عزلته صلى الله عليه وسلم فيه
علامة على نزوع نفسه وشوقها الى الخلاص .

(وامست نظرته الى قومه نظرة عالم الفلك في عصرنا —
الى جماعة يؤمنون بأن الارض محمولة على قرن ثور . أو نظرة
عالم الذرة الى جماعة يتراشقون بالحجارة اذا تحاربوا . وينتقلون
بالمطايا اذا سافروا(٣٧)) .

(وكان اختياره صلى الله عليه وسلم لهذه العزلة طرفا
من تدبير الله له . وليعده لما ينتظره من الامر العظيم .

ولابد لاي روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية
فتحولها وجهة أخرى . . لابد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض
الوقت . وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة . وهموم
الناس الصغيرة التي تشغل الحياة .

وهكذا دبر الله لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو يعده
لحمل الأمانة الكبرى . وتغيير وجه الأرض . وتعديل خط التاريخ . .
دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات . ينطلق
في هذه العزلة شهرا من الزمان مع روح الوجود الطليقة .

ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون . حتى يحين موعد
التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله(٣٨) .

(٣٧) نقه السيرة للغزالي ٨٨

(٣٨) في ظلال القرآن ١٦٦/٢٩ : ١٦٧

ومعنى ذلك ان العزلة فرار بالنفس من واقع يلح عليها بكثير
من الامراض القلبية .. والتي لا نجاة من تأثيرها الا بفراق المجتمع
نفسه زمنا معلوما .

ثم هى من ناحية أخرى قرب من الحق سبحانه وتعالى يربى
ملكة الحب له والتقديس لذاته .

فاذا امتدت فى حنايا القلب عاطفة الحب .. واذا برئت
النفس من مجارة المجتمع فيما يعج به من باطل .. عادت بعد
ذلك الى ساحة المعركة بين الحق والباطل وهى عصية على
الانحراف .. قادرة على الدفاع وعلى الهجوم .

العزلة ليست انقطاعا كاملا عن الحياة :

ويلاحظ انه صلى الله عليه وسلم كان فى عزلته (يأخذ معه
السويق والماء .. ويطعم من جاءه من المساكين (٣٩)) .

بمعنى انه لم يتحول بالعزلة ملكا مبتوت الصلة بالبشر ..
وانما هو فى خلوته يتأمل .. ويتفكر .. وما تزال نفسه تقوم
بدورها فى الاصلاح : يعمل لياكل من عمل يده .. ولا ينسى حق
اهله عليه — فلا يغيب الا اياما معدودات .

ان لزوجته عليه حقا .. وللناس عليه حقا .. وحق ربه
تعالى لا يضيع ذلك كله .

ونلفت نظري بعض المتشدددين الذين يكلفون أنفسهم
ما لا تطيق .. تلفت نظريهم الى ما ذكره طلائع الجغرافيين العرب
من ان غار حراء وما حوله حينئذ لم يكن صحراء قاحلة .. ولكنه
كان معشوشبا تكسوه خضرة . ليعلموا ان عزله صلى الله عليه
وسلم لم تكن قتلا للدوافع النفسية .. ولا انقطاعا كاملا عن
مباهج الحياة .

يقول بعض الباحثين (٤٠) :

(ومحمد صلوات الله وسلامه عليه كان اذا خرج الى غار
حراء . لم يكن يهر في طريق موحش ليس بذى نبات ولا غرس .
انما كان يسير في طريق لين سهل . فيه خضرة قليلة . وشجر
وبعض ماء . وكان اذا وصل الى حراء لم يشق عليه الصعود اليه
كما يشق علينا اليوم وذلك لما يتوفر له من عزيمة صادقة تزيده قوة
وتسهل له الصعاب) .

ويعنى هذا :

اختيار غار حراء موطننا للتعبد كان تدبيرا الهيا .. ينشرح به
الصدر .. وتبتهج النفس .. ويجد العقل فرصته للتطيق في ملكوت
الله تعالى .. في جو كل ما فيه يشهد بوحداية الله .. بعيدا عن
صخب الحياة .



(٤٠) دراسات في السيرة النبوية .

ولا شك انها عزلة . وان ثنئت قلت : خطوة الى الوراء
تجىء القفزة بعدها محكمة . يصل بها الانسان الى هدفه .

وليست هى الرهبانية الذاهبة بالانسان الى سفوح الجبال
بلا عودة . لأنها بهذا المعنى فرار من الميدان . على ما يقول الرافعى
يصف الرجل السلبى :

(يحسب أنه قد فر من الرذائل الى فضائله .
وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء . والبر
والاحسان اذا كانت فيمن انقطع في صحراء . أو على رأس جبل ؟
أيزعم أحد أن الصدق فضيلة فى انسان ليس حوله الا عشرة
أحجار ؟

وأيم الله ان الخالى عن مجاهدة الرذائل جميعا . لهو الخالى
من الفضائل جميعا(٤١)) .

ان الفرار من الحياة الصاخبة ضرورة أحيانا فى حياة الفرد
العادى . كى يستجم استجماما يعده لمرحلة تالية يكون فيها أقدر
على ممارسة دوره بنشوق . وهو لازم بين بالمعنى الأخص فى حياة
حملة الرسالات :

حين يستعلون بالعزلة على جواذب الأرض .. ليتحرروا
من أسارها . حتى يخلص النفؤاد للحق .

(٤١) وحى القلم ٩٧/٢

واذن فقد كان محمد صلى الله عليه وسلم بشرا في قمة
الكمال البشرى .. ولم يكن ملكا .. والا لما استطاع ان يقوم
بالبلاغ .. وقد كانت الخلوة (٤٢) نقطة تحول في حياته تقف به
بين عالم الملائكة وعالم البشرية ليصلح عندئذ للتلقى عن الملك :

فجبريل ملك بكل ما تحمل الكلمة من روحانية علوية .
ومحمد عليه السلام :

(ا) بشر .

(ب) وهو بالخلوة روحانى .

فهو مزدوج الطبيعة .

ولكى يتمكن من التعامل مع عالم الملائكة لابد من :

ترقيق الطبيعة البشرية بهذه الخلوة .

اى انها شبيهة بفترة حضانة لبدا الرسالة .

الى جانب ما حدث من « غط » جبريل له .

هذا الغط الذى يشبه ان يكون تفتيتا لعلائق البشرية لتستعد

للتلقى .. وليس ذهابا بالبشرية جملة . والا لما تمكن من مخاطبة

الامة وقيادتها .

ولعل هذا ما اشار اليه العلماء :

(ان مع الخلوة فراغ القلب . وهى معينة على التفكير .

والبشر لا ينتقل عن طبعه الا بالرياضة البليغة .

(٤٢) راجع « محمد رسول الله » للشيخ عرجون ج ١/٢١٦

فحبب اليه صلى الله عليه وسلم الخلوة لينقطع عن
مخالطة البشر . فينسى المألوف من عاداته . فيجد الوحي منه
مرادا سهلا لا حزنا (٤٣) .

أى أن الوحي حين ينزل . . ينزل على طبيعة بشرية أقرب
ما تكون الى أفق الملائكة . فيعينها ذلك على حسن التلقى
والاستيعاب . .

* * *

يقول العارفون بطبائع النفوس — ومنهم ابن عربى — أن
اشراق النفس . . ووصولها الى مرأى اليقين . . يلح عليها أن
تنجو من صخب الحياة والاحياء . . ليخلو الانسان بنفسه بعيدا .
(ومادام الأمر أمر نبوة قادمة . فلا يتفق مع جلالها أن يكون
محمد منصرفا الى شئون المعاش . مخالطا للناس . ثم يطرقه
الوحي بفته وسط الخلق . أو وهو خال في بيته . مع أهله من
زوج أو ولد .

إن الخلوة في الجبل أصبحت حينئذ خطوة من خطوات الدخول
في النبوة .

ومن هنا فقد كان أساسيا أن تكون الخلوة لفترات طويلة .
لأن محمدا هنا يبتعد لبعض الوقت عن البشر . ليتم تحوله الروحى .
ويستعد لتلقى الرسالة . ثم يعود الى الناس نبيا مرسلا . لكى
يدعوهم الى الدخول فيمالقى الله فى صدره من الايمان (٤٤) .

(٤٣) عمدة القارئ بدء الوحي .
(٤٤) دراسات فى السيرة النبوية د. حسين مؤنس .

محمد صلى الله عليه وسلم بين الأنبياء :

يقول صلى الله عليه وسلم :

(مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه واجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه . فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة . وأنا خاتم النبيين (٤٥)) .

وفي الليلة التى نزل جبريل عليه السلام بالوحي أول ما نزل .. وضعت هذه اللبنة .. وكمل البناء .. وبزغ ضوء الصبح يشرق أطباق الظلام .

وفي هذه اللحظة بدأت الرحلة المباركة .. وتمت مكارم الأخلاق التى هى ميراث النبوة الحقيقى :

(انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق (٤٦)) .

عندما اعترض المشركون على اختيار محمد صلى الله عليه وسلم للرسالة فيما حكاه القرآن الكريم عنهم :

○ ————— ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ

هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٤٧﴾

(٤٥) رواه مالك فى الموطأ وأصحاب السنن .

(٤٦) رواه البخارى ومسلم .

(٤٧) سورة الزخرف آية ٤١

كان الرد الالهى مسفها لهم حيث قال :

○ ————— ﴿أَهْمُ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ
لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَفَرًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (٤٨)

انهم تقلبوا فى اعطاف النعيم كابرا عن كابر . فافسد النعيم
فيهم ملكة التمييز . وخرمهم من صحة الحكم .

كيف وهم اسارى قيم المال . والجمال . والمنصب .

واذ قسم الحق تعالى هذه الحظوظ دون اخذ رأيهم . فكيف
بالرسالة العظمى وهى اجل واسمى ؟

انها رحمة الله تعالى يقسمها كيف يشاء . ولا صلة لهم
بقسمتها اطلاقا . ودورهم فقط : ان يتعرضوا لآثارها على يد من
اختاره تعالى لتبليغها .

(٤٨) سورة الزخرف آية ٣٢

واصطفاء الحق تعالى من عباده من لم يكن ذا مال وبنين . .
ومحمدا صلى الله عليه وسلم بالذات . انما جاء طبق سنة
الهيبة تبينها طبيعة الرسالة ذاتها :

أجل . انه صلى الله عليه وسلم لم يكن يملك من حطام
الدنيا شيئا يستلقت الأنظار .

ولكنه كان يملك من عظيم الأخلاق ما استحق به الاصطفاء
للمرسلة .

(ان المعطائم كمؤها العظماء) .

واذن فهو بأخلاقه يعكس طبيعة الرسالة التي قدر لها ان
تشق طريقها بين الصخور بقواها الذاتية . على لسان رسول
يملك من قوة الشخصية ما يغنيه عن كل طلاء كاذب ، (لقد اختار
لها من يعلم انه لها اهل .

ولم يشأ الحق سبحانه أن يجعل لهذه الرسالة سندا من
خارج طبيعتها . ولا قوة خارج حقيقتها . فاختار رجلا ميزته
الكبرى : الخلق . . وهو من طبيعة هذه الدعوة . وسمته
البارزه : التجرد . . وهو من حقيقة هذه الدعوة .

ولم يختره زعيم قبيلة . ولا رئيس عشيرة . ولا صاحب
جاه . ولا صاحب ثراء . . كى لا تلتبس قيمة واحدة من قيم الأرض
بهذه الدعوة النازلة من السماء .

ولكى لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض
ليس من حقيقتها فى شيء .

ولكى لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها . خارج عن ذاتها
المجردة . ولكى لا يدخلها طامع . ولا يتنزّه عنها متعفف (٤٩) .

وإذا فقد كان صلى الله عليه وسلم بأخلاقه العظيمة .
على موعد مع الرسالة العظيمة . لبثّر هذا اللقاء المبارك من
كل الثمرات .

وحتى هؤلاء الحنفاء الذين عبدوا الله تعالى على ملة ابراهيم
عليه السلام على ما كان لديهم من صدق النوايا . وسلامة
الوجهة . لكنهم لم يكونوا على مستوى هذه المسؤولية العظمى .
فلم تكن القضية قضية نوايا طيبة بقدر ما كان الامر
« خلوص المحل الذى يملؤه هذا الامر الخطر » كما قيل بحق .
خلوصا بمحض وجود الرسول للرسالة وتبعاتها .

ومن وراء ذلك كله : ارادة قوية ماضية بالناس الى مرضاة
الله .

يقول الشيخ محمد الغزالي في هذا المعنى :

(ان زيد بن عمرو بن نفيل واحد من المفكرين القلائل . الذين
سخطوا ما عليه الجاهلية من فكر .

انه ليشكر على تحريره الحق . ولا يغطط هو ولا غيره
اقدارهم بين قومهم . لكن القدر كان يتخير رجلا يبصر الحق .

(٤٩) في ظلال القرآن .

ويملك من الطائفة ما يدفعه به الى آفاق العالمين . فى وجه مقاومة
تسترخص النفس والنفيس للبقاء على الضلال . والامساك بلبيله
البارد الثقيل .

كان القدر يعد لهذه الرسالة العظيمة رجلها العظيم (٥٠) .

ونزل الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم .. فكان
نزوله رد اعتبار لكرامة الانسان التى ضيعت على موائد المتعة
الرخيصة .. وفى ميادين القتال الهمجى . وردا لاعتبار العقل الذى
شغل نفسه بأساطير الاولين زمنا طويلا .. ثم رفع جبهة الانسان
المعفرة بتراب السجود لغير الله تعالى لتشمخ وتطاول السماء .

براعة الاستهلال فى الرسالة الخاتمة :

روى البخارى فى الجامع الصحيح باب : كيف بدأ الوحي :

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت :

(أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من
الوحي : الرؤيا الصالحة — أو الصادقة — فى النوم . فكان لا يرى
رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح .

ثم حجب اليه الخلاء . وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه —
والتحنث : التعبد . الليالى ذوات العدد . قبل أن ينزع الى
اهله . ويتزود لذلك .

ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها .

حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك فقال :

اقرأ . قال : ما أنا بقارىء .

قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال :

اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء .

فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى

فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء .

فأخذنى فغطنى الثالثة . ثم أرسلنى فقال :

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٢﴾

مِنْ عَلَقٍ ﴿٣﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٤﴾ الَّذِى عَلَّمَ

بِالْقَلَمِ ﴿٥﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٦﴾ ﴾

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده .

فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها . فقال : زملونى .

زملونى . فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

فقال لخديجة بعد ان أخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى .

فقال خديجة :

كلا . والله لا يخزيك الله أبدا .

انك لتصل الرحم

وتصدق الحديث

وتحمل الكل .

وتكسب المعدوم .

ونقرى الضيف . وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى اتت به ورقة بن نوفل . ابن عم خديجة .

وكان امرا تنصر في الجاهلية .

وكان يكتب الكتاب العبرانى .

فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله ان يكتب .

وكان شيخا كبيرا قد عمى .

فقال له خديجة : يا ابن عم . اسمع من ابن اخيك .

فقال له ورقة يا ابن اخى : ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى انزل الله على موسى .

ياليتنى فيها جذعا (٥١) . ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : او مخرجى

هم ؟ قال : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى .

وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشعب ورقة

ان توفى وغتر الوحي) .

(٥١) أى شابا قويا .

وقفة تأمل :

عندما أراد سبحانه انزال وحيه على رسوله صلى الله عليه وسلم اختار اللحظة المناسبة . . في ظروف مواتية تشير بكل حركة فيها الى أسس الدعوة الجديدة : لقد قعدت من القواعد . واصلت من الأصول ما كان منطلقا للدعوة . . فكانت بحق براعة استهلال لرحلة الدعوة الطويلة .

الرؤيا الصادقة :

قال صلى الله عليه وسلم :

. (الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان) .

يقسم الحديث الرؤيا المنامية الى رؤيا صالحة وبين أن مصدرها الله والى نوع آخر يسميه « حلما » ويبين أن مصدره تصورات الشيطان للنفس .

والحديث يقرر بذلك نظرية الاسلام عن الاحلام ، فهناك الرؤيا الصادقة التي قد تكشف عن المستقبل لأنها نوع من الوحي ، وحقيقتها انطلاق الروح في حال خمود نوازع الجسم الشاغلة لها حال اليقظة الى عالم المسكوت الذي نقش فيه كل ما هو كائن ، وما سيكون من أحوال المخلوقات — وهو عالمها الاصلى — فتلقف من هنالك بعض العلم وتعود به لصاحبها بصورة صريحة او بصورة رمزية ، فتلك هي « الرؤيا » .

وأما الحلم فهو من تخیلات الشيطان للنفس ، وقد يكون الشيطان رمزا لما يسميه علماء النفس المحدثون بكبت الرغبات

فان — الشيطان — وهو روح خبيث هو الذى يذكى رغبات
الانسان المادية .

ويرى « فرويد » وجميع مقلديه ، ان الاحلام منحصرة في
الصنف الثانى المعلن بـ « كبت الرغبات » وينكرون الصنف الالهى
انكارا باتا وليس في الجهل ما هو اشد من هذا الانكار الذى
ترده التجربة المستمرة وخبر المعصوم (٥٢) .

اما الرؤيا الصالحة :

فقد كان محمد صلى الله عليه وسلم يصحو منها مشرح
الصدر . متفتح النفس لكل ما في الحياة من جمال .

كانت مرحلة اشراق روحى دخل فيها محمد ليبعد عن الحياه
ويرتفع عن صفاتها دون أن ينفصل عن الناس .

وهى تمهيد طبيعى للانتقال الى مرحلة أخرى من مراحل النبوة .

وتعبر « فلق الصبح » هنا يعيننا على تصورها :

فان الانسان منا اذا قضى ليلة هادئة نام فيها نوما هنيئا .
واصبح فنظر الى حديقة ذات أشجار وخضرة وزهور .. أحس
في نفسه فعلا : كأن نفسه تمتلئ بنور صاف . يشبه الفلق .
وهو ضياء الصبح اذا انبج .

ويفسر المفسرون الفلق في قوله تعالى :

(قل أعوذ برب الفلق) .

(٥٢) كلمة للدكتور محمد سعاد جلال .

بأن الله سبحانه وتعالى فلق ظلمة العدم بنور الايمان .
وهذا النور هو الذى كان يملأ نفس محمد عندما يصحو بعد
رؤية من هذه الرؤى الصالحة (٥٣) .

ان من شأن المفاجأة ان تربك الانسان . وتشل قدرته على
التمييز والاختيار .. فلا يستطيع اتخاذ القرار المناسب .

وقد شاعت حكمته تعالى — وهو أعلم بهراذه سبحانه —
أن تكون الرؤيا الصادقة أول ما يلاقى من بوادر الوحي .. حتى
إذا دقت ساعة الجهاد . كانت النفس مستعدة للتلقى يقظة .

وقد ذكرت بعض الروايات أن مجيء جبريل يقظة سبقه (٥٤)
مجيئه مناما وبنفس الصورة . تهيئته للرسول صلى الله عليه
وسلم .. على نحو يعايش فيه الظروف الجديدة حتى لا تثقل عليه
لو جاءت دون سابق انذار .

وأمر آخر :

فقد كانت الرؤيا أيضا اعدادا للامة التى تعيش معه ..
حتى تزامله فى رحلة الكمال .

انه يذكر لهم ما يشاهد فى منامه . وتصديق نبوعته . ويفسر
الواقع ما رآه فى منامه .

(٥٣) د. حسين مؤنس : دراسات فى السيرة النبوية ٧٩/٧٨
(٥٤) راجع : محمد رسول الله ج ٢٧/١ وما بعدها .

وانهم ليستشرفون معه أفقاً أعلى من واقع يتحكم فيهم
بتقاليده حتى اذا عاد يوماً من فوق الجبل يخبرهم بالوحى كانوا
مستعدين للتجاوب معه .

وهنا نذكر منهج الاسلام فى البدء بالتشديد احياناً توطيئاً
للنفس على الامتثال .

ثم التخفيف أحياناً تلطفاً بالنفس ابتداءً حتى لا تنفر من
التكليف جملة . . ولعل فى بدء الوحى وما كان فيه من التيسير
بالرؤيا الصادقة أولاً . . ثم التشديد بالأمر بالقراءة مع أميته صلى
الله عليه وسلم . . ثم بغطه على النحو الذى تم به ما يشير الى
درس فى اعداد النفوس للتلقى . حين يبدأ التعليم النظرى بالتيسير
من القضايا . . جذبا للنفس الى مجالس العلم .

ثم بالتشديد عند التكليف لتنتلق النفس بعد تخطى العقبة
مستسهلة كل صعب . جاء فى بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (٥٥) .
تأمل الحكمة فى التشديد اول التكليف . ثم التيسير فى آخره
بعد توطيد النفس على العزم والامتثال فيحصل للعبد الامران :
الأجر على عزمه .

وتوطيئ نفسه على الامتثال والتيسير والسهولة بما خفف
الله عنه :

فمن ذلك أمر الله تعالى رسوله بخمسين صلاة ليلة الاسراء
ثم خففها وتصدق فجعلها خمسا .

ومن ذلك :

انه أمر أولا بصبر الواحد الى العشرة . ثم خفف عنهم ذلك الى الاثنين .

ومن ذلك :

انه حرم عليهم في الصيام اذا نام احدهم ان يأكل بعد ذلك . او يجامع . ثم خفف عنهم باباحة ذلك الى الفجر .

ومن ذلك :

انه اوجب عليهم تقديم الصدقة بين يدي مناجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما وطنوا انفسهم على ذلك خففه عنهم .

ومن ذلك :

تخفيف الاعتداد بالحوادث . . بأربعة اشهر وعشرا وهذا كما يقع في الابتلاء بالأوامر فقد يقع في الابتلاء بالقضاء والقدر :

يشدد على العبد أولا . ثم يخفف عنه .

وحكمته تسهيل الثاني بالأول وتلقى الثاني بالرضا . وشهود المنة والرحمة . وقد يفعل الملوك ببعض رعاياهم قريبا من هذا :

يطلبون منهم الكثير جدا . الذي ربما عجزوا عنه ثم يحطون انى ما دونه لقطوع لهم نفوسهم بذله . ويسهل عليهم .

وقد يفعل بعض الحمالين قريبا من هذا فيزيدون على الحمل شيئا لا يحتاجونه ثم يحط تلك الاشياء . فييسهل حمل الباقي عليهم .

ويقع في الأمر والقضاء والقدر أيضا ضد هذا :

فيثقل عباده بالتدريج من اليسير الى ما هو أشد منه لئلا
يفجأ هذا التشديد بفته فلا تحمله . ولا تنقاد له . وهذا كتدريجهم
في الشرائع شيئا بعد شيء . دون أن يؤمروا بها كلها . وهلة
واحدة . وكذلك المحرمات :

ومن هذا أنهم أمروا بالصلاة أولا ركعتين ركعتين . فلما
الفوها زيد فيها ركعتين أخريين في الحضر . ومن هذا أنهم أمروا
أولا بالصيام وخبروا فيه بين الصوم عينا وبين التخيير بينه
وبين الفدية .

فلما الفوه أمروا بالصوم عينا .

ومن هذا أنهم أذن لهم بالجهاد أولا من غير أن يوجبهم عليهم .
فلما توطنت عليه نفوسهم . وياثروا حسن عاقبته وثمرته أمروا
به وفرض عليهم فرض كفاية وحكمة هذا التدرج : التربية على
قبول الأحكام والاذعان لها والانتقياد لها شيئا فشيئا .

ميلاد الانسان :

عندما جاءه الوحي — صلى الله عليه وسلم — وهو في
غار حراء . ولد الانسان في هذه اللحظة . وثبتت صلاحيته
ليكون رسولا نبيا بعد أن ظن الجاهلون استحالة ذلك حين جردوا
الانسان من صلاحية التلقى عن الله سبحانه وجعلوا ذلك للملك . .
دون الانسان !

أجل : ولد الانسان من جديد :

فهو مأمور بأن يقرأ . ليدخل بالقراءة عالما جديدا . فوق
ما تعارف عليه المترفون .

ولتكون القراءة مفتاح نهضة شاملة كاملة في كل فن من
فنون الدنيا .

وإن يرتبط ذلك كله بالحق . « اقرأ باسم ربك » .
انه بعث جديد في دوافعه . وفي أهدافه .
ولا يفرض الأمر هنا قسرا :
وانما هو مغل بالدليل : « الذى خلق » .

أى أن العقل الذى تجرد على يد الطغاة في فارس والروم
ومن احتطب في حبلهم يستيقظ اليوم على ضوء رسالة عظمى ..
تحترم آدمية الانسان .. وتعترف به ناطقا مفكرا .. فتقدم له
الدعوى .. مصحوبة بدليلها !

ومصحوبة أيضا بأدق مناهج التربية :

فالطالب عند التلقى لابد أن يكون فارغ البال . كامل الانتباه .
ولا يتم ذلك الا بفتح كل منافذ حسه بمختلف الوسائل الممكنة ..
وليكن ذلك ثلاث مرات لا تزيد !

وهكذا فعل جبريل عليه السلام بنبينا عليه الصلاة والسلام :
لقد غطه وبقوة ليستجمع انتباهه .. ولينقله الى قمة الكمال
البشرى ليكون على مشارف الملكية حتى يتحقق نوع من التقارب
يتم به التجانس . ويمكن من التلقى بوعى كامل !

لقد كانت المفاجأة مذهلة :

أولا : حين دخل عليه جبريل الغار بلا استئذان .
وثانيا : حين امره بالقراءة بمجرد الدخول كما يفيد التعبير
« بالفاء » فقال : ومن ثم كان الفرع شديدا .. وكانت العودة
الى خديجة وهو مضطرب الفؤاد .

وعندما خاف ان يكون قد ألم به شيء بادرته خديجة رضى
الله عنها بما ينفي ذلك تماما .

وانها لتقول له : ابشر .. بينما الافق كله ينذر بالغيوم .
ولكنها المرأة العظيمة : انها ترى الفجر القادم من خلال
الغيوم الداكنة ولا تقول ذلك دعوى بلا دليل لكنها تعزز منطقها
بماضيه المشرف في خدمة الخلق . فالحكم بعد الدراسة فكيف
يخزيه الخالق ؟!

لقد وصفته بأصول مكارم الاخلاق كلها .

لان الاحسان (اما الى الاقارب : أو الى الأجانب . واما
بالبدن . أو بالمال . واما على من يستقل بأمره . أو من لا يستقل .
وذلك كله مجموع فيما وصفته به (٥٦) .

وهذا ما لمستته على الطبيعة من اخلاق محمد ولم تقراه بين
دفتى كتاب . ان الرحمة في طبعه عاطفة سائدة وانه يتجه بالرحمة
الى الخلق الجديرين بها .

(٥٦) فتح الباري .

ومن ثم فالذين يشفقون على الخلق دائما في عين الحق .

وكان من الممكن ان تستبد العاطفة بالمرأة هنا — وعاطفتها
غلبة — فترتك من هول المفاجأة .

لكن العقل هنا كان صاحيا ففاد خديجة مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم الى حيث الخبرة .. والتجربة لدى ابن عمها
ورقة بن نوفل .

لقد كانت مكة حافلة بالخبرات والقيادات والاقارب .
ولكنها قررت ان تأخذ العلم من مظانه .. لأن التجارب
الفطيرة لا تخدم الحق .

ولماذا ابن عمها ؟ ولماذا ورقة بالذات ؟ انه ابن عمها .. فهو
أخلص لها .

ثم هو : شيخ .. وقور كبير .. له رصيد من التجارب ..
ومن أهل الكتاب .. فهو أقرب الى الحق رحما .

ويجيد العبرية .. فهو واسع الثقافة .. على صلة
بالكتب .. فلها عنده ذكر .. واذن فحكمه اصدق .. وكلامه اهدى .

خديجة تدبر الحوار :

لقد تكلمت بتقديم الرسول الى ورقة .. واضعة بالتقديم (٥٧)
قاعدة مهمة في السلوك الاجتماعى :

(٥٧) راجع في هذا المعنى كنوز السنة للدكتور محمد عبد الله دراز .

فقد قدمت الرسول الى ورقة .. وفيه ارشاد
ان صاحب الحاجة يقدم بين يديه من يعرف بقدره..من يكون اقرب
منه للمسئول(٥٨) .

ان المرأة التي كانت بالأمس موعودة تدفن حية في التراب ..
تقف اليوم الى جانب الرجل تمهد للرسالة تمهيدا يؤكد قدرتها في
ضوء الايمان على ان تكون شيئا مذكورا .

واذا كان الشاعر يقول :

ولابد من شكوى الى ذى مروءة
يسليك او ينجيك او يتوجع

فان خديجة رضى الله عنها لم تقف عند حد التسلية او
التوجع . لكنها ارتقت الى درجة أعلى في مشاركة ايجابية فاعلة .

وكان ورقة عند حسن الظن به وفاء واخلاصا :

فقد واجه محمدا صلى الله عليه وسلم بالخطر الذى ينتظره
وعليه منذ الآن ان يستعد له .

ليستعد للغد المرتقب . وللمعركة الفاصلة الخطيرة التى تمنى
ورقة ان يكون حيا . حينئذ .. وأن يكون شابا قويا ليقف الى جانبه
في معركة لا يثبت فيها الا الأقوياء ..

(٥٨) فتح البارى .

وهنا تتم النصيحة كمالا ..

ويستعد الرسول الكريم للمستقبل في صحبة احساس للمعركة
الكبرى التى لن تكون مفاجأة له :

عرفنا الليالى قبل ما نزلت بنا
فلما دهتنا لم تزدنا بها علما

خديجة والبحث عن الحقيقة :

ولقد كانت لخديجة محاولة ذاتية تبينت فيها أن ما يجيشه
صلى الله عليه وسلم ملك .. فبعد أن تعددت رؤية الملك .. أرادت
أن تتبين هل هو ملك أم شيطان :

قالت لرسول الله : أى ابن عم :

أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك الذى يأتيك اذا جاءك ؟
قال : نعم .

فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع .

قال لخديجة : هذا جبريل قد جاءنى .

قالت :

قم ابن عمى . فاجلس على فخذى اليسرى . ففعل .

قالت : هل تراه ؟

قال : نعم .

قالت : فتحول فاجلس على فخذى اليمنى . ففعل .

قالت : هل تراه ؟

قال : نعم .

قالت : فتحول . فاجلس على حجرى . ففعل .

قالت : هل تراه ؟

قال : نعم .

فكشفت رأسها . والقت خمارها . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها .

ثم قالت له : هل تراه : قال : لا ..

قالت : يا ابن عم : اثبت وأبشر . فوالله انه لملك . وما هذا الشيطان(٥٨) .

إذا كان صدق الرسول وأمانته حقيقة مقررة في ضمائر العرب حينئذ .. فقد كان في تقدير خديجة معلوما بالضرورة .. لما شاهدته وسمعته عنه صلى الله عليه وسلم .. ثم لما تزوجته علمت من صدقه ووفائه للحقيقة انه كان يتغاضى عن الهفوات الا اذا رأى على احد كذبة فلا يزال معرضا عنه حتى يحدث توبة .

واذن فلم تكن لديها ذرة من شك في صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يقوله عن هذا الذى يأتيه .. وانما هى فقط تريد

(٥٩) ايد ابن اسحاق هذه الرواية بأنه حدث بها عبد الله بن حسن (خفيد الحسن بن علي) فأيده وقال سمعت أمي فاطمة بنت الحسن تحدث بهذا الحديث عن خديجة — انظر ابن هشام ج ١/٢٣٨

ان تتأكد من طبيعته ليطمئن قلبها .. منطلقة في ذلك من ورائها
لزوجها العظيم .. الذى يعيش منها في بؤرة الشعور .. لا يغيب ..
فلم تكن هى تلك الزوجة المعاصرة التى تغط في نوم عميق بينما فى
قلب زوجها ما يشبه الحريق .. تاركة شريك حياتها يغالب الأمواج
وحده .

ومنطلقة — كذلك — من الدم المشترك والمصير المشترك من
حيث كانا فى زورق واحد تتقاذفه هوج الرياح .. ولابد من أن يتحمل
كل راكب مسؤوليته ..

ومن هنا تناديه .. لا كزوج فقط وانما تقول له :

أى : ابن عم .. مسجلة بهذا النداء طبيعة دورها لا كرفيقة
عمر .. وانما بالاضافة الى ذلك .. فهى أخته .. ومن دمه ولحمه .
أى ان اهتمامها به مردود الى الرابطة الأبدية التى لا تنفصم عراها .
ويعنى ذلك : أن الحق تعالى .. والذى يعد محمدا صلى
الله عليه وسلم ليكون رسولا .. يهيب له فى نفس الوقت الزوجة
الوفية التى ترتفع معه الى مستوى مسؤوليته .. والتى تعينه على
أمر الله .



والى جانب الوفاء .. فقد كان هناك أيضا قبس من الذكاء ..
الذكاء الذى هداها الى ان هناك فرقا هائلا بين الملك وبين الشيطان .
فالملك طاهر .. والشيطان نجس ..

فلما كشفت رأسها .. فغاب استحياء علمت انه ملك . .
والا فلو كان شيطانا لبقى ..

وعندئذ نصحت الرسول بالثبات على الأمر .. ثم بشرته بأنه
ملك . .

اجل بشرته بينما كان الجو كله غامضا .. مكفها .. ولكن
خديجة المؤمنة كانت ترى الخطر بعينها .. الا أن قلبها يخترق هذه
الحجب ليرى من وراء الخطر .. ذلك فجر الطالع .

وبعد :

ففى الوقت الذى كانت خديجة تسلك سبيلها الى اليقين كان
محمد صلى الله عليه وسلم على غاية ما يكون اليقين .. حين قال
لها واثقا :

(هذا جبريل قد جاءنى)

وعندئذ يخنس أعداء الاسلام من المستشرقين الظانين
بالرسالة ظن السوء حين قالوا أن محمدا كان واهما .. ولا يدري
انه كذلك ..

لكن هذا الموقف وأمثاله خير شاهد على كذب ما يقولون .
وخبث ما يظهرون .

اسلام صادق :

مر بنا كيف حكمت خديجة رضى الله عنها باستحالة أن يخزى الله محمدا ابدا .. وعلمت هذا الحكم بماضيه المشرف في :

صلة الرحم .. ومساعدة الضعيف .. وقرى الضيف ..
والعون على نواب الحق ..

ثم ها هي ذى اليوم تعلن اسلامها بناء على التجربة العملية
التي كررتها حتى وصلت الى مرفأ اليقين :

فالرسول يجلس على شقتها الأيمن .. ثم يتحول الى حجرها .
ثم تكشف رأسها .. فلما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ..
أعلنت اسلامها .. وهكذا ينبغى أن تكون قراراتنا المصرية :
يجب ان تبني على اليقين ..

فترة الوحي :

روى ابن سعد عن ابن عباس ان مدة فترة الوحي كانت
أياما (٦٠) ولم تكن سنوات كما اشتهر عند بعض الباحثين .
وقد بقى صلى الله عليه وسلم هذه الفترة محزونا .
ثم نزل عليه جبريل بعد ذلك .

وقد ذكر ابن حجر أن انقطاع الوحى كان لحكمة الهية تعده
صلى الله عليه وسلم لمرحلة تالية يكون فيها أمضى عزما .

ومن اسباب ذلك :

(أ) ان تأخر الوحى مدة يذهب عنه ما لاقاه من روع .

(ب) تشوقه وتطلعه اليه . فلما عاد صادف قلبا مشوقا
فتمكن .

(ج) أن يعينه ذلك التطلع على الثبات اذا جاء بعد ذلك .

الدعوة السرية ، دعوة العشرة :

لما كانت مكة مركز دين العرب . وكان بها الأصنام والقائمون
عليها . المدافعون عنها .

فقد كانت الدعوة الى التوحيد شاقّة تخوض طريقا محفوا
بالمخاطر .

لذلك . كان لابد من سرية الدعوة فى مراحلها الاولى حتى
لا يفاجا اهل مكة بما يصدم مشاعرهم فيئدوها فى مهدا ..

ومن صور الحكمة دعوة الاقربين أولا قبل الأبعدين .

ذلك بأن الأقربين :

(١) هم آله وذووه ومن ثم اعرف الناس بصدقه فيما يقول .
واهل البيت ادرى بما فيه .

(ب) اذا رآهم الأجانب مسلمين كان ذلك دليلا قويا على
صدقه . حيث آمن به من هو واثق بهذا الصدق .

يقول صاحب فقه السيرة د . « البوطى » :

ولا ريب أن تكتم النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته الى
الاسلام ، خلال هذه السنوات الاولى ، لم يكن بسبب الخوف
على نفسه ، فهو حينما كلف بالدعوة ونزل عليه قوله تعالى :

« يا ايها المدثر قم فانذر (٦١) » .

علم أنه رسول الله الى الناس ، وهو لذلك كان يوقن بأن
الاله الذى ابتعثه وكلفه بهذه الدعوة قادر على ان يحميه ويعصمه
من الناس ، على ان الله عز وجل لو امره من اول يوم ان يصدع
بالدعوة بين الناس علنا ، لمسا توانى عن ذلك ساعة ولو كان يتراءى
له في ذلك مصرعه .

ولكن الله عز وجل الهه — والالهام للرسول نوع من الوحي
اليه — ان يبدا الدعوة ، في فترتها الاولى ، بسرية وتكتم ، وان
لا يلتقى بها الا من يغلب على ظنه أنه سيصيح لها ويؤمن بها ، تعليمها
للدعاة من بعده، وارشادا لهم الى مشروعية الأخذ بالحيلة والاسباب

الظاهرة ، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التى ينبغى ان تتخذ من أجل الوصول الى غايات الدعوة وأهدافها . على ان لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد والاتكال على الله وحده ، وعلى أن لا يذهب الانسان فى التمسك بهذه الاسباب مذهباً يعطيها معنى التأثير والفعالية فى تصويره وتفكيره . يخذش أصل الايمان بالله تعالى ، فضلاً عن انه يتنافى مع طبيعة الدعوة الى الاسلام .

ومن هنا تدرك ، أن أسلوب دعوته عليه الصلاة والسلام ، فى هذه الفترة ، كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه اماماً ، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبياً .

وبناء على ذلك فانه يجوز لأصحاب الدعوة الاسلامية ، فى كل عصر أن يستعملوا المرونة فى كيفية الدعوة — من حيث التكم والجهر ، أو اللين والقوة — حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذى يعيشون فيه . وهى مرونة حددتها الشريعة الاسلامية ، اعتماداً على واقع سيرته صلى الله عليه وسلم ، ضمن الاشكال أو المراحل الأربع التى سبق ذكرها ، على أن يكون النظر فى كل ذلك الى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الاسلامية .

ومن أجل هذا اجتمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين اذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أى نكايه فى أعدائهم ، اذا ما أجمعوا قتالهم ، فينبغى أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس ، لأن المصلحة المقابلة وهى مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع .

ويقر العز بن عبد السلام حرمة الخوض في مثل هذا الجهاد
قائلا :

« فإذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام ، لما في الثبوت من
فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وارغام أهل الاسلام ، وقد
صار الثبوت هنا مفسدة محضة ، ليس في طيها مصلحة » .

قلت : وتقديم مصلحة النفس هنا ، من حيث الظاهر فقط .

أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد ، فإنها في الواقع
مصلحة دين ، إذ المصلحة الدينية تقتضي — في مثل هذا الحال —
أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين
المفتوحة الأخرى . والا فإن هلاكهم يعتبر اضرارا بالدين نفسه
وفسحا للمجال أمام الكافرين ليقفتموا ما كان مسدودا أمامهم من
السبل .

والخلاصة ، أنه يجب المسالبة أو الاسرار بالدعوة إذا كان
الجهر أو القتال يضر بها ، ولا يجوز الاسرار في الدعوة إذا أمكن
الجهر بها وكان ذلك مفيدا ، ولا يجوز المسالبة مع الظالمين
والمتربصين بها إذا توفرت اسباب القوة والدفاع عنها ،

أول المفيت :

آمنت خديجة أولا ..

ثم آمن على رضى الله عنه وهو ابن عشر سنين .

ثم اسلم مولاه وخادمه زيد بن حارثة والذي فضل البقاء
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على العودة مع أبيه .

ثم اسلم أبو بكر الذي كان اسلامه فتحا مبينا . . حيث اقنع
بعض اشراف قريش بالدخول في الاسلام فاستجابوا .

وكان ذلك دعما لمسيرة الدعوة التي يجيء غدها باستمرار
افضل من أمسها بما يضيفه القدر اليها من اشراف تزاد بهم قوة .

شهادة صدق :

ولقد كان من تدبير الله تعالى أن يسبق هؤلاء الى الاسلام . .
ليكونوا باسلامهم شهداء صدق على أن محمدا صلى الله عليه وسلم
رسول الله حقا :

ان أعظم الناس واجلهم . اذا انقلب الى بيته . كان فيه
رجلا من الرجال . . واحدا كآحاد الناس . ولقد صدق « فولتير »
في كلمته المشهورة : « ان الرجل لا يكون عظيما داخل بيته .
ولا بطلا في أسرته » .

يريد أن عظمة المرء لا يعترف بها من أقرب الناس اليه لاطلاعه
على دخيلته في مبادئه . وهذا الحكم يشذ عن الرسول صلوات
الله وسلامه عليه . فيقول « باروت سميث » :

(ان ما قيل عن العظماء في مبادئهم لا يصح — على الاقل —
في محمد رسول الاسلام) .

واستشهد بقول « كبن » لم يمتحن رسول من الرسل أصحابه
كما امتحن محمد أصحابه .

انه قبل ان يتقدم الى الناس جميعا . تقدم الى الذين عرفوه
 انسانا المعرفة الكاملة . فطلب من زوجه . وغلame . واخيه .
 واقرب اصدقائه اليه . واحب خلانه . ان يؤمنوا به نبيا مرسلا .
 فكل منهم صدق دعواه وآمن بنبوته . وان حليلة المرء اكثر الناس
 علما بباطن امره . ودخيلة نفسه . والصقهم به . فلا يوجد من
 هو اعرف منها بهناته ونقائصه . اليس اول من آمن بمحمد رسول
 الله زوجه الكريمة التى عاشرتة خمسة عشر عاما واطلعت على
 دخائله فى جميع اموره . واحاطت به علما . فلما ادعى النبوة
 كانت اول من صدقه (٦٢) .

بعض ما لقيه المسلمون من اذى قريش .

اتفقت كلمة المشركين على صرف المسلمين عن دينهم بكل
 ما ملكوا من وسائل التعذيب .

وكانت مقاومتهم تلك طبق خطة مكررة تستهدف التعامل مع
 كل مسلم بما يناسبه من تهديد او وعيد :

(قال محمد بن اسحاق(٦٣) :

وكان ابو جهل الفاسق الذى يغرى بهم فى رجال من قريش :

ان سمع برجل قد اسلم له شرف ومنعة ابنه وخزاه وقتل :

(٦٢) البعث الاسلامى جمادى الاولى ١٤٠٥ هـ .

(٦٣) البداية والنهاية ج ٥٧/٣

تركت دين ابيك . وهو خير منك . لنسفن حلك .
ولنفلين (٦٤) راك .

ولنضمن شرفك .

وان كان تاجرا قال :

والله لنكسدن تجارتك . ولنهلك مالك .

وان كان ضعيفا ضربه . واغرى به . لعنه الله وقبحه) .

عدوانهم على رسول الله :

وقد كان التركيز اولا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
لانه امام المسلمين . فاذا افلحوا في صده عن الدعوة . فقد سهل
عليهم بعد ذلك اقراء آحاد المسلمين الذين يصبحون بلا قيادة
تحميم . ويجدون فيها املهم مجسدا . وقد اتخذ ايذاؤهم لرسول
الله صلى الله عليه وسلم مسالك شتى منها :

١ — الاغراء .

٢ — الاسئلة المتعنتة .

٣ — التهديد .

٤ — السخرية .

٥ — الاعتداء المباشر عليه .

(٦٤) على من باب رمى وقتل : اى مستنظر فيه . وفي مائته وجيره .

الافراء :

ارسل اليه اشراف قومه يوما . فجاءهم راغبا في اسلامهم .
فقالوا له : (٦٥) .

يا محمد : انا قد بعثنا اليك لنعذر فيك . وانا والله لا نعلم
رجلا من العرب ادخل على قومه ما ادخلت على قومك :

لقد شتمت الاءاء . وعبت الدين . وسفهمت الاحلام . وشتمت
الالهة . وفرقت الجماعة .

وما بقى من قبيل الا وقد جئته فيما بيننا وبينك .

فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب مالا . جمعنا لك من
اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا .

وان كنت انما تطلب الشرف فيما سودناك علينا (٦٦) .

وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا .

وان كان هذا الذى ياتيك بما ياتيك رثيا (٦٧) تراه قد غلب
عليك . فربما كان كذلك . . بذلنا اموالنا فى طلب الطب . حتى
نبرئك منه . او نعذر فيك (٦٨)) .

وبالتأمل فى هذا العرض نطالع ما يلى :

(٦٥) راجع البداية والنهاية ج ٤٨/٣

(٦٦) جعلناك سيدنا .

(٦٧) الرئى بفتح الراء وكسرهما وتشديد الاء : الجنى .

(٦٨) أى اذا لم تكف ما تفعله . فنحن معذرون فيما نفعله بك .

بمجرد أن بعث الملأ من قريش اليه صلى الله عليه وسلم
نراه وقد سارع بالاجابة أملا في أن يسلموا .

لكنه فوجيء بهم يستميلونه بصور من الاغراء لعل واحدا منها
يثنيه عن المضي في طريق الدعوة .

ولقد كان الاغراء قويا جذابا . ولكيه صلى الله عليه وسلم
لا يعمل لنفسه وانما عمله كله للدعوة . وهو مستعد أن يحرم من
كل متاع لا يحقق امله في انتشارها وهيمنتها .

وربما توقع الملأ المفتونون بالدنيا أن الرسول وشيك الوقوع
في شباكههم . . لكنه صلى الله عليه وسلم خيب آمالهم . . وقطع
أطماعهم في استمالته بقوله جوابا عن اغرائهم :

(ما بى ما تقولون . ما جئتم بما جئتم به اطلب اموالكم .
ولا الشرف فيكم . ولا الملك عليكم .

ولكن الله بعثنى اليكم رسولا . وأنزل على كتابا . وأمرنى
أن اكون لكم بشيرا ونذيرا . فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم .

فان تقبلوا منى ما جئتم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة .
وان تردوه على أن أصبر لأمر الله . حتى يحكم الله بينى
وبينكم) .

الباطل يضى في تعنته :

كان المتوقع أن يسكت القوم بعد أن قطع الرسول أطماعهم . .
لكنهم انتقلوا من الاغراء الى العناد عن طريق طلب الآيات .

والمعجزات . ومعنى ذلك أن الباطل لا يهادن الحق أبدا . وديدنه
أن يستمر في الشغب . والتعنّت . فإن أصابوا ما أملوا فبها . .
وإلا فقد حققوا بالعبث ما يشتهون من اثاره الغبار حتى لا تخلو
الساحة للحق وحده .

من أجل ذلك قالوا له — تعقيا على جوابه الآنف — يا محمد :

(فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك . فقد علمت أنه
ليس أحد من الناس أضيق بلادا . ولا أقل مالا . ولا أشد عبثا منا .

فسل لنا ربك الذى بعثك بها بعثك به فليسير عنا هذه
الجبال التى ضيقت علينا . وليبسط لنا بلادنا . وليجر فيها أنهارا
كأنهار الشام والعراق . وليبعث لنا ما مضى من آبائنا . .) .

فلما أجابهم صلى الله عليه وسلم أن ما يقترحونه خارج عن
وظيفته كرسول يبلغ ما أوحى إليه . . لجوا فى عتوهم فتمسكوا
عابثين :

(سل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك بما تقول . ويراجعنا
عنه . وتسأله فيجعل لنا جنانا وكنوزا . وقصورا . من ذهب
وفضة) .

اغلاق باب النقاش :

وعند وصول النقاش الى هذا الحد . . حكم الحق تعالى
باغلاق بابيه .

لأنهم طلبوا على وجه العناد . لا على وجه الهدى والرشاد .
 فلهذا لم يجابوا الى كثير مما طلبوا . ولا ما اليه رغبوا .
 نعلم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما أرادوا . لاستقروا
 في طغيانهم يعمهون . ولظلوا في غيهم وضلالهم يترددون . وذلك
 ما يشير اليه قوله تعالى في كثير من الآيات الكريمة يقول سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ
 أَوْ تُكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ
 خَلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا
 كَسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ
 بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ
 حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ
 كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ
 جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۝ ﴾ (٦٩)

وقال تعالى :

○ ————— ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ
بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ^ج وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْآتَانَ
مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ^ج وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٧٠﴾ ٢

وقال سبحانه :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ^ج
قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ^ط وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧١﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ^ط وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾
* وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْنُ وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿٧٣﴾ ٢

(٧٠) سورة الاسراء آية ٥٩
(٧١) سورة الانعام الايات من ١٠٩ - ١١١

وقال سبحانه :

○ ————— ﴿ إِن الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
لَا يُؤْمِنُونَ ۚ ﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ ﴿ ٧٢ ﴾ ﴿ ٧١ ﴾

وتبدو الرحمة الالهية في عدم اجابتهم الى ما طلبوا . . لان
الله تعالى علم انهم . لن يؤمنوا بالآيات المقترحة . فيهلكهم .

واذا عاد محمد صلى الله عليه وسلم حزينا أسفا حيث لم
يتحقق امله في هدايتهم . . الا ان الموقف لم يخل من بارقة أمل
ان يخرج الله من اصلابهم من يعبد الله تعالى .

التهديد :

كان ثبات الرسول على ما هو عليه مما اثار حفيظة القوم .
فحضر بعضهم بعضا عليه .

ثم انهم مشوا الى ابي طالب فقالوا (٧٣) :

(٧٢) سورة يونس الايات ٩٦ - ٩٧
(٧٣) راجع البداية والنهاية ج ٤٥/٣ وما بعدها .

يا ابا طالب : ان ابن اخيك قد سب آلہتنا . وعاب ديننا .
وسفه احلامنا . وضلل آباءنا .

فاما ان تكفه عنا . واما ان تخلى بيننا وبينه . فانك على
مثل ما نحن عليه من خلافه . فنكفيكه .

فقال لهم ابو طالب قولاً رقيقاً . وردهم رداً جميلاً . فانصرفوا
عنه . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه
يظهر دين الله . ويدعو اليه) .

ونلاحظ هنا محاولة الملا رفع الحصانة عن رسول الله .
حتى يتمكنوا منه . ذاكرين لابی طالب بأنه — ابا طالب — على
دينهم . فهو منهم . واذا عقد الاحراج لسانه . واذا منعته الشفقة
من مصارحة محمد بالكف عن دعوته .. فانهم مؤدون عنه هذه
المهمة الصعبة !

والا .. فلم يعودوا يطيقون هجوم الرسول عليهم وعلى
آبائهم . ودينهم . ويبدو ان الحملة لم تكن ضارية بدليل انهم اكتفوا
منه بالرد الجميل . والكلمة الرفيعة ..

فلما راوا اصرار الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوته ..
ولما تأكد لهم ما يحققه من نجاح .. صعدوا الحملة . وبلغ التهديد
مداه . حين لم يكتفوا باستهداف محمد وحده .. وانما ضموا اليه
عمه ابا طالب نفسه .. والذي صار مع ابن اخيه جبهة معادية
لهم . وهم مستعدون للتصدى لها ..

وذلك قولهم :

(يا ابا طالب : ان لك سنا وشرنا ومنزلة فينا . وانا قد استنهيئك من ابن اخيك . فلم تنهه عنا .

وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا . وتسفيه احلامنا . وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا . او ننازله واياك في ذلك . حتى يهلك أحد الفريقين) .

ابو طالب حائر بين عقله وقلبه :

واحترار ابو طالب بين عقله وقلبه :

فهو باسم العقل لا يطيق عداوة قومه . ولا يقدر على مراقبتهم . وهو خيط في نسيج حياتهم .

وفي نفس الوقت لا يطاوعه قلبه المتعلق بمحمد أن يسلمه اليهم هكذا لينفردوا به على مرأى ومسمع منه .

وقرر ابو طالب ان يخرج من هذا التمزق بقوله للرسول :

(يا ابن اخي :

ان قومك قد جاعوني فقالوا كذا وكذا .. فابق على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق) .

عندئذ ظن الرسول صلى الله عليه وسلم ان عمه قد خذله .. وانه قد استسلم لتهديد قومه .. فقرر معتدا على ربه سبحانه — ان يحسم هو الموقف الذي لم يستطع عمه ان يحسمه فقال :

(يا عم :

والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على
ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته') .

ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى . ثم قام .
وعندئذ ناداه عمه فقال له :

(اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت . فوالله لا أسلمتك لشيء
ابدا) .

مقارنة بين موقفين :

عندما دعت قريش محمدا أن يجلس اليها — وهو ما اشرنا
اليه من قبل — كان رده عليه الصلاة والسلام رفيقا حيث كان
يطمع في اسلامهم . فلم يشأ هناك أن يقطع خيط الرجاء . أما هنا
فتقد اختلف الموقف :

فالملا من قريش يهددون ويتوعدون . . معرضين بما يملكون
من عدد وعدة . . فكان الرد الطبيعى هنا أن ينتفض محمد بكل
ما منحه الايمان من اعتزاز وثبات ليجرد هذا التهديد من فعاليته . .
الى درجة أنهم لو غيروا نظام الكون . . والبوا عليه الدنيا كلها .
فلن يترك هذا الأمر . ولو أدى ذلك الى هلاكه .

* * *

الباطل يستسلم :

اراد الملا من قريش ان ينسحبوا من الميدان مهزومين ..
لكنهم ارادوا ان يستروا حمرة الخجل البادية على وجوههم ازاء
هذا الصمود من رجل يقف وحده .. ثم يتحداهم جميعا .. فقرروا
ان يقدموا الى ابي طالب اقتراحا مستحيلا من الناحية العملية ..
ولكنهم جربوه مع علمهم سلفا برفضه ليستروا في ظله حمرة الخجل:

فقد عرضوا على ابي طالب ان يعطوه اعز فتى في قريش
وهو « عمارة بن الوليد » بدل محمد . ليتخذه ولدا له .. ثم ليسلم
اليهم محمدا نظيره ليقتلوه !

ورفض ابو طالب بطبيعة الحال في منطق اخاذ مقنع قائلا :

(والله لبئس ما تسوموننى :

اتعطونى ابنكم اغذوه لكم . واعطيكم ابنى فتقتلونه ؟

هذا والله ما لا يكون ابدا) .

ولم يكن القوم في حاجة الى من يقنعهم بتفاهة العرض ..
ولكنها بداية النهاية .. الناطقة بعجزهم امام اصرار محمد ..
ومن ثم راحوا يحاولون المحاولة الأخيرة :

عندما يغييب العقل :

عندما يفقد الانسان عقله فانه يلجأ الى اساليب الصبيان ..
واساليب الحيوان .

يلجأ الصبيان الى السخرية من العقلاء .. ولا يسع الحيوان
الا التحرش بالآخرين .

وهذا ما فعله الكافرون في تعاملهم مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم بعد ان اعيته الحيل .

(قال عروة بن الزبير : سألت ابن العاص فقلت :

اخبرنى بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ؟ قال :

بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة
اذ اقبل عليه عقبة بن ابى معيط . فوضع ثوبه على عنقه فخنقه
خنقا شديدا . فأقبل أبو بكر رضى الله عنه حتى اخذ بمنكبه ودفعه
عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال :

(انتظتوني رجلا ان يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات
من ربكم (٧٤)) .

وقال عروة ايضا :

(اجتمع اشرافهم فى الحجر يوما . فذكروا رسول الله صلى
الله عليه وسلم وما فعل بهم .

(٧٤) البداية والنهاية .

.. فاقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت
فغزوه ببعض القول . فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله
عليه وسلم . فمضى فلما مر بهم الثانية غزوه بمثلها . فغزوها
في وجهه . فمضى فمر بهم الثالثة فغزوه بمثلها . فقال :

اتسمعون يا معشر قريش ؟

أما والذي نفسي بيده لقد جئتم بالذبح !!

فأخذت القوم كلمته . حتى ما منهم من رجل الا وكأنما على
رأسه طائر وقع . حتى أن أشدهم عليه ليقول :

انصرف أبا القاسم راشدا فما كنت بجهول (٧٥) .

ثم انهم راوه في اليوم التالي فوثبوا اليه وثبة رجل واحد
فأحاطوا به يقولون :

أنت الذي تقول كذا وكذا ؟

فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(نعم . أنا الذي أقول ذلك) .

وهكذا .. في الوقت الذي يدعوهم صلى الله عليه وسلم
لما يحييهم اذا هم يتحرشون به في شخص مثلهم « ابن أبي

(٥٨) راجع البداية والنهاية .

معيط « الذى خنقه ارادة قتله . لولا نجدة أبى بكر الذى واجه
القوم بالآية الكريمة . مشيرا الى انهم عكسوا الآية محاولوا قتل
رجل بلا مسوغ للقتل .

بل اذا كان ولا بد من قتل فالأجدر به أولئك الآثمون .
المعتدون . . لا هذا الرسول الذى جاءهم بما يحييهم .

ولا ننسى الاحساس بالضعف فى قلب ابن معيط . ومن
ورائه المأ من قريش .

هذا الاحساس الذى شل يده فلم يجهز عليه . . لا سيما
وعصبة الشر تشكل من ورائه خط دفاع منيع . . ولولا قوة
الايمان التى شددت من أزر أبى بكر لما استطاع أن ينجيه من
عصابة الشر .

ولكن الباطل لا ييأس أبدا من مناوشة الحق . . وهامهم
أولاء يتحينون الفرصة ليميل بعضهم على بعض هامسا . فى حركة
مسرحة يظن معها انهم يأترون به . . وقد ترتسم على الوجوه
ابتسامة صفراء خبيثة . فى محاولات للسخرية منه صلى الله
عليه وسلم . فلعل هذه الحركة مائعة له من الاستمرار فى البلاغ .

ونلاحظ اصرار القوم على حركتهم تلك الخبيثة فيما يشبه الحصار
المضروب فلا فكاك .

ويفاجئهم صلى الله عليه وسلم بما لم يخطر لهم على
بال قائلا :

لقد جئكم بالذبح !!

لقد تعودوا منه الكلمة الهادئة الرقيقة .. فما هو الجديد
الذى طرأ عليه فخرج به عن طبعه هذه المرة ؟

لقد ظنوا أن سكوته صلى الله عليه وسلم استسلام لهم ..
وفرحوا بجمعهم القادر على السخرية بل وعلى الإيذاء دون
مقاومة — فأراد صلى الله عليه وسلم أن يفاجئهم بما يشبه
الصدمة الكهربائية .. بهذا المنطق الخشن .. حتى يفيقوا من غفلتهم
ليروا أن الرجل المسالم قادر على أن ينتقم منهم . وما كان سكوته
هذه المرة عن عجز . ولكنه الأمل الذى يمتد في قلبه أن يهديهم أو
يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى .

ولقد نزلت الآيات تترى منددة بمسلك القوم .. مهددة
بالمصير الرعب السذى ينتظرهم جزاء ما قدمت أيديهم . وذلك
قوله تعالى :

○ ————— ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

أَجْرُمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ وَإِذَا

مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ

انْقَلَبُوا فُكِهِينَ ﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ

لَضَالُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٧﴾
 فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٨﴾ عَلَى
 الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٩﴾ هَلْ تُؤِثُّونَ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا
 يَفْعَلُونَ ﴿٤٠﴾ (١٧٦)

التنكيل بالمستضعفين :

(لو ان اهل مكة ترددوا في تصديق محمد صلى الله عليه وسلم حتى يبحثوا امره . ويحصوا رسالته . ويزنوا — على مهل — ما لديهم وما جاء به . لما عابهم على ذلك عاقل . ولكنهم نفروا من الاسلام نفور المذنب من ساحة القضاء . بعد ما انكشفت جريمته . وثبتت ادانته .

وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا الاعراض المقرون بالتكذيب والتحدى . ومن حق كل رجل صدوق نبيل أن يأسف ويألم اذالقى نفسه مكذبا مهجورا . الا ان الله واساه . فابان له بواطن هؤلاء المكذبين المتألمين

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ

وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَةِ اللَّهِ يَمْجِدُونَ ﴾ (١٧٧)

(٧٦) سورة المطففين الآيات من ٢٩ — ٣٦
 (٧٧) نكه السيرة للقرطبي ١٠٥ والآية من سورة الانعام ٢٣

ولقد كان المقصود بالتحرش برسول الله تخذيل المسلمين من ورائه حتى يفقدوا ثقتهم به . وبالتالي تهتز الدعوة الجديدة في انفسهم فلا تنال حظها من العناية .

فلما ثبت صلى الله عليه وسلم . وكابر تحرشات المعتدين . وانتصر عليهم . قرر المشركون تحويل الوجهة الى المستضعفين . لعلهم ان يزعزحوهم بالاضطهاد . حتى لا يستتروا في طاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

قامت كل قبيلة بتعذيب من اعتنق الاسلام من ابنائها .

الى جانب ما كان هناك من اعتداءات فردية بلغت النهاية في الغلظة والقسوة وفي ذلك ما يروى انه كان لعثمان بن عفان عم ظالم غشوم . فلما علم باسلام عثمان قرر اضطهاده ليكسر ارادته المصممة على المضي مع الحق . فكان يلفه في حصر من اوراق النخيل . يدخنه من تحته .

وكان مصعب بن عمير ممن نشأوا في النعيم . ولما أعلن اسلامه اجاعته امه . ثم طردته من البيت . فذاق وبال الجوع والتشرد . في سبيل عقيدته التي يجب ان تحيا وان مات هو في سبيلها . الا وان رضا مصعب بهذا التقتشف وهذا الضنك من بعد النعيم . . . دليل يفند المزاعم القائلة بأن المنفعة كانت من وراء اسلامه . . . والا فما هي المنفعة التي حققها مصعب ؟

ولم يكن بلال بأسعد حظا من اخويه : عثمان ومصعب . . قالى جانب تعذيبه بالجلوس في حر الشمس . ثم بطرحه على ظهره

لتوضع الصخرة الكبيرة على صدره .. كان سيده يسلمه الى
الصبيان ليطوفوا به في شعاب مكة .. يجرونه بحبل وضع
في عنقه !!

ويلاحظ ان المشركين تنادوا بالتفنن في تعذيب هذا الرعيل
الأول : فاذا كان بلال قد سحب بالحبل من عنقه .. فقد شد
« ابو فكيهة » برجله يمسحون به الأرض .

وعندما وفد « أبو ذر » على رسول الله صلى الله عليه
وسلم . واسلم . قال له صلى الله عليه وسلم :

ارجع الى قومك فأخبرهم . حتى يأتيك أمري .

قال : والذي نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرائهم . فخرج
حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته :

أشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله .

ثم قام القوم فضربوه حتى اضجعوه . وأتى « العباس »
فأكب عليه قال :

ويلكم . الستم تعلمون أنه من « غفار » وأن طريق تجاركم
الى الشام عليهم فأنقذه منهم .

ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه . وثاروا اليه . فأكب العباس
عليه (٧٨)

(٧٨) البخارى . باب اسلام ابي ذر .

ومما يلتفت النظر هنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم
يأمره باعلان اسلامه .

ولكن شدة ايمان الرجل .. وامتلأ قلبه بحقية الدين الجديد
لم يتركاه له خيارا فيما يفعل .

فما هى الا أن فاضت نفسه اعترافا واقتناعا بالدعوة
الجديدة .. بل وصراخا بها على مرأى ومسمع قريش . ولقد
كان يعلم سلفا وهو غريب فريد ذلك الثمن الذى سوف يدفعه ! .

الا أنه من تدبير الله تعالى أن يصرخ فيهم أبو ذر مؤكدا للقوم
أن العذاب والنكال لن يوقف المد الزاحف .. وأنه ليزيد الحقيقة
اشتعالا فى نفوس المؤمنين .

ولقد احس المعتدون بالصفار ازاء هذه الصور الفريدة
من الاحتمال .

ولا شك أن رؤيتهم لهذا الصمود رغم فداحة الثمن الذى
يدفعه المؤمنون اقنعهم من الداخل أنهم جميعا اضعف من أن
يطفئوا نور الله بأفواههم .

وقد كان الظن أن تستحي النخوة العربية من التعرض
لامرأة بالأذى .. ولكن الاسد المجروح راح يتخبط على غير
هدى .. فجعل للمرأة المسلمة كعلا من هذا التكيل :

كانت هناك اماء : النهديّة وابنتها وأم عبيس .. فلما اسلمن
وتفرغ عمر — قبل أن يسلم — لضرب أحدهن حتى اذا كلت يداه

من الضرب بلا جدوى .. توقف قائلا :

انى لم اترك الا ملالة (٨٩) !

آل ياسر :

وكان لآل ياسر النصيب الاوفى من التعذيب :

كان المشركون يخرجونهم الى الأبطح . اذا حميت الرمضاء .
فيعذبونهم بحرما . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر
بهم فيقول :

صبرا آل ياسر . فان موعدكم الجنة (٨٠) .

فأما أمه فقتلوها . وهى تأبى الا الاسلام .

ولعلنا ندرك عمق المأساة فى عين « عمار بن ياسر » رضى
الله عنه يرى أمه تقتل . وهو لا يملك لها من الأمر شيئا .. حتى
الرسول نفسه لا يملك لها شيئا الا الوصية بالصبر . والوعد
بالجنة .

ولئن مات أبوه « ياسر » تحت وطأة العذاب .. فقد كان
مصير أمه جارحا كعربى وكمسلم .. لكنها المبادئ العليا تكلف
أربابها أن يعيشوا لها ويموتوا فى سبيلها .

ولك أن تتصور عمق البلاء هنا :

(٧٩) راجع الرحيق المختوم ١٠٣ وما بعدها .
(٨٠) رواه ابن اسحاق فى السيرة (٢٠٣/١) .

ان انسانا يسمع اليوم كلمة تخذش حياءه . ليهب دفاعا عن
كرامته . ومن ورائه رأى عام يسانده .

فان لم يكن خالقانون ينتقم له .

أما « عمار » فانه يرى بعينه يد الغدر تطعنها .. ويسمع
بأذنيه انينها .. ثم لا يملك لها شيئا .

بل ولا يملك الرسول الا الدعاء .. ان البلاء حينئذ اكبر من
أن يتحملة انسان .. ولكن « عمارا » يغالب المحنة .. ويخرج
منها بعقيدته .. ولئن ودع أباه .. وودع أمه .. فان في بقاء
عقيدته عزاء وسلوى .

اسلام حمزة :

عندما ينتفش الباطل مزهوا بما يملك من قوة وحيلة .. فان
الضربة تأتيه من حيث لا يحتسب .. فاذا هو زاهق مرغ في
التراب .

وهذا ما حدث عندما مر أبو جهل برسول الله صلى الله عليه
وسلم ذات يوم عند « الصفا » فشتمه . فلم يرد عليه رسول الله
صلى الله عليه وسلم . فانصرف عنه .

وقد كان « حمزة بن عبد المطلب » على موعد مع الاسلام ..
وذلك أنه سمع بما فعل أبو جهل برسول الله . فدخل المسجد .
فلما رأى أبا جهل ضربه بالقوس ضربة شجيت رأسه .. وسال
الدم من طاغية قريش .. مغلنا هزيمته .. وليس هذا فقط ..

بل كان هناك ما هو أشد على أبى جهل من هذه الضربة التى
شرخت كرامته قبل أن تشق رأسه . وهو اعلان حمزة فى نفس
الموقف :

أتشتبه وأنا على دينه . أقول ما يقول .

أجل سكت أبو جهل . وحق له أن يسكت (لأن الصدمة
فى حال النشوة تذهب بالرأى . وتوجب الدهشة والسبات .
بحكم الطبيعة (٨١)) .

وأسلم حمزة . وكان اسلامه فاتحة خير وبركة .. وبارقة
أمل عريض فى نصر الله والفتح . ومن تدبير القدر الأعلى أن يسلم
حمزة .. ليكون بعد قليل فى دار الأرقم .. وليكون فى استقبال عمر
حين توجه اليها ارادة النيل من رسول الله .. ولعل وجود حمزة
بالدار حينئذ قوة تصدت لعمر .. ولعلها أزاحت من نفسه آخر
حجاب مانع من الهدى .. فى لحظة مخاض جاء من بعدها الفرج ..
فأسلم عمر بن الخطاب .

أسماء الفتيان الذين أسلموا في العهد النسي : ---

رغم ما كان من ارهاب قريش . وتنكيلهم بالمستضعفين ..
الا ان مجموعة من الشباب أعلنوا اسلامهم مع ما ينتظرهم من ضنك
العيش .. والموت احيانا :

- ١ — على بن ابي طالب . أول الفتيان اسلاما :
أسلم وهو ابن ثمان سنوات .
- ٢ — الزبير بن العوام أسلم وهو ابن ثمان من السنين .
استشهد في واقعة الجمل
سنة ٣٦ وله ٦٤ سنة .
- ٣ — طلحة بن عبيد الله أسلم وهو ابن اثنتى عشر سنة ،
استشهد سنة ٣٦ وله ٦٧
سنة .
- ٤ — الأرقم بن ابي الأرقم أسلم وهو ابن اثنتى عشر ،
ومات سنة ٥٥ من الهجرة .
- ٥ عبد الله بن مسعود أسلم وقد قارب البلوغ ، و مات
سنة اثنى وثلاثين من الهجرة .
- ٦ — سعيد بن زيد أسلم وهو دون العشرين ، و مات
سنة اثنتين وخمسين من
الهجرة .
- ٧ — سعد بن ابي وقاص أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة
ومات سنة أربع وخمسين من
الهجرة .

- ٨ — مسعود بن ربيعة
اسلم وهو ابن سبع عشرة سنة
ومات سنة ثلاثين من الهجرة .
- ٩ — جعفر بن ابي طالب
اسلم وهو ابن ثمانى عشرة
سنة ، استشهد بموته .
- ١٠ — سهيب الرومى
اسلم وهو دون العشرين ، و مات
سنة ثمان وثلاثين من
الهجرة .
- ١١ — زيد بن حارثة
اسلم فى حدود العشرين و مات
وهو ابن ٥٥ سنة فى غزوة
مؤتة .
- ١٢ — عثمان بن عفان
اسلم فى حدود العشرين ، استشهد
سنة ٣٥ هـ وسنه ٨٢ سنة .
- ١٣ — طليب بن عمير
اسلم فى حدود العشرين ، استشهد
فى واقعة اجنادين .
- ١٤ — خباب بن الارت
اسلم فى حدود العشرين و مات
وعمره ثلاث وستون سنة
(مات سنة سبعة وثلاثين) .
- ١٥ — عامر بن فهيرة
اسلم ابن ثلاث وعشرين سنة .
- ١٦ — مصعب بن عمير
اسلم وهو ابن اربع وعشرين
سنة . استشهد فى احد .

- ١٧ — المقداد بن الاسود
اسلم وهو ابن أربع وعشرين
سنة . ومات سنة ثلاث
وثلاثين من الهجرة .
- ١٨ — عبد الله بن جحش
اسلم وهو ابن خمس وعشرين
سنة ، ومات وهو ابن ثيف
واربعين سنة .
- ١٩ — عمر بن الخطاب
اسلم وهو ابن ست وعشرون
سنة .
- ٢٠ — ابو عبيدة بن الجراح
اسلم وهو ابن سبع وعشرين
سنة ، ومات وكانت سنه
عند موته ثمان وخمسين
سنة .
- ٢١ — عتبة بن غزوان
اسلم وهو ابن سبع وعشرين
سنة ومات وسنه سبع
 وخمسون سنة .
- ٢٢ — ابو حذيفة بن عتبة
اسلم في حدود الثلاثين ، استشهد
في وقعة اليمامة ، وسنه
ست وخمسون سنة .
- ٢٣ — بلال بن رباح
اسلم في حدود الثلاثين ، ومات
سنة عشرين من الهجرة .
- ٢٤ — خالد بن سعيد
اسلم في حدود الثلاثين ،
واستشهد يوم مرج الصفر .

- ٢٥ — عمرو بن سعيد أسلم في حدود الثلاثين واستشهد يوم مرج الصفر.
- ٢٦ — عياش بن أبي ربيعة أسلم في حدود الثلاثين ومات شهيدا سنة خمس عشرة من الهجرة .
- ٢٧ — عامر بن ربيعة أسلم في حدود الثلاثين ومات سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة .
- ٢٨ — نعيم بن عبد الله أسلم في حدود الثلاثين ومات بمؤتة
- ٢٩ — عثمان بن مظعون أسلم في حدود الثلاثين ومات في السنة الثانية من الهجرة.
- ٣٠ — عبد الله بن مظعون أسلم ابن سبع عشرة سنة ومات سنة ثلاثين من الهجرة .
- ٣١ — قدامى بن مظعون أسلم ابن تسع عشرة سنة، ومات سنة ستة وثلاثين من الهجرة .
- ٣٢ — السائب بن مظعون أسلم في حدود العشر من السنين واستشهد في واقعة اليمامة.
- ٣٣ — أبو سلمة بن عبد الأسد أسلم في حدود الثلاثين ومات في السنة الرابعة من الهجرة.

٣٤ — عبد الرحمن بن عوف أسلم في حدود الثلاثين ومات في سنة إحدى وثلاثين من الهجرة .

٣٥ — عمار بن ياسر أسلم بين الثلاثين والأربعين واستشهد في واقعة صفين سنة ٣٧ من الهجرة .

٣٦ — أبو بكر الصديق أسلم وهو (٣٧ سنة) ومات سنة ثلاثة عشرة من الهجرة .

٣٧ — حمزة بن عبد المطلب أسلم وهو ابن (٤٢ سنة) واستشهد في غزوة أحد .

٣٨ — عبيده بن الحارث أسلم وهو بن خمسين سنة ومات بعد عودته من بدر .

٣٩ — عامر بن أبي وقاص مات بالشام في خلافة عمر وأسلم بعد عشرة رجال .

٤٠ — السائل بن عثمان بن مظعون استشهد باليمامة وسنه بضع وثلاثون سنة .

عن « مجلة الوعي الاسلامي العدد ٧٧ » .

حكمة الهجرة :

الانسان عدو ما يجهل .
يألف حياته اليومية الدارجة . . وكل محاولة لنقله منها وتمرده
عليها يقاومها بشدة . وإذا استكان فرغم أنه .
انه يتصور المجهول غولا يتربص به . وتسول له نفسه بما قد
يخبئه ذلك المجهول من شرور لا وجود لها الا في خياله هو .
من اجل ذلك يستنهض الاسلام همة المسلم حتى تستيقظ
وتقتحم هذا المجهول . الذى سوف يسفر في النهاية عن منافع
جمة تتعلق بالفرد وتتعلق بالجماعة .
وذلك سر من أسرار قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ
مُرَآئًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ ﴾ (٨٢)

ومعنى ذلك ان الهجرة اذا كانت خروجاً على مألوف المسلم . .
فان فيها فوائد كثيرة بما يحققه المهاجر المكافح من مكاسب يرغم
بها أنوف أعدائه .

وعلى هذا الاساس جاءت الهجرة النبوية :
يقول صاحب المنار (٨٣) .
شرعت الهجرة لثلاثة أسباب أو حكم . . اثنان منها يتعلقان
بالأفراد . والثالث يتعلق بالجماعة :

(٨٢) سورة النساء آية ١٠٠

(٨٣) تفسير سورة النساء ص ٢٩٥ بتصرف .

اما الاول : فهو انه لا يجوز لمسلم ان يقيم في بلد يكون فيها ذليلا مضطهدا في حريته الدينية والشخصية فكل مسلم يكون في مكان يفتن فيه عن دينه . أو يكون ممنوعا من اقامته فيه كما يعتقد . يجب عليه أن يهاجر منه الى حيث يكون حرا في تصرفاته . واقامة دينه . والا كانت اقامته معصية يترتب عليها ما لا يحصى من المعاصي .

والاجاز له الاقامة .

واما الثانى : فهو تلقى الدين والتفقه فيه . فلا يجوز لمن أسلم في مكان ليس فيه علماء يعرفون أحكام الدين ان يقيم فيه . بل يجب ان يهاجر الى حيث يتلقى الدين والعلم .

واما الثالث المتعلق بجماعة المسلمين . فهو انه يجب على مجموع المسلمين أن تكون لهم جماعة أو دولة قوية تنشر دعوة الاسلام . وتقيم أحكامه وحدوده . وتحفظ بيضته . وتحصى دعائه واهله من بغى الباغيين . وعدوان العادين وظلم الظالمين .

فاذا كانت هذه الجماعة او الدولة ضعيفة يخشى عليها من اغارة الاعداء . وجب على المسلمين أينما كانوا أن يشدوا أزرها حتى تقوى وتقوم بما يجب عليها .

فاذا توقف ذلك على هجرة البعيد اليها وجب عليه ذلك وجوبا قطعيا لا هواده فيه . والا كان راضيا بضعفها . معينا لاعداء الاسلام على ابطال دعوته . وخفض كلمته .

الهجرة إلى الحبشة

تمهيد :

في السنة الخامسة للهجرة اثبتت وطأة المشركين على المسلمين . وكأئها صار المستضعفون مسلاة في يد الطغاة يلهون بها . واذا وجد الرسول صلى الله عليه وسلم من يحميه من الكيد . . فانه لم يكن يملك لهؤلاء المستضعفين الا الدعاء بالخلاص . والبشارة بالجنة جزاء صبرهم الجميل .

وتبقى الدعوة في مكة متعثرة محاصرة لا أمل حينئذ في احرازها نصرا يخرج بها من هذا العذاب المضروب عليها . . فكان لابد من الهجرة الى أن يأذن الله تعالى بعودة الدعوة مرة أخرى متوجة بأكاليل النصر المبين .

الاعداد للهجرة :

وقبل الشروع في الهجرة كان هناك اعداد الهى للمسلمين ..
 ليتقبلوا فكرة الهجرة اولا .. ثم ليصبروا على مشاقها ثانيا :
 فقد نزلت سورة الكهف مفصلة هجرة الفتية الذين هاجروا
 بعقيدتهم من الوثنية المتحكمة .. مخافة ان يفتنهم قومهم عن دينهم .
 يقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا عَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ
 يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ
 مَرَفَقًا ﴾ (٨٤)

ثم ما كان من قصة الخضر مع موسى عليه السلام ..
 وما تشير اليه من غلبة الشر أحيانا في ظاهر الأمر .. الا ان
 الامور لا تجرى على الظاهر .. والعبرة بالخواتيم .

واذن .. فعلى المسلمين المضطهدين في مكة ان يعوا هذه
 الدروس .. موقنين بأن الهجرة لو فرضت عليهم قريبا .. فليسوا
 على الطريق وحدهم .. وانما سبقهم اليها اصحاب الكهف ..
 الذين هاجروا في سبيل الله .. فنجوا بعقيدتهم من كيد الكائدين .

(٨٤) سورة الكهف آية ١٦

وان الرياح لم تكن على ما يشتهي المشركون .. بل كان النصر في النهاية حليف المؤمنين .

وكما تشير قصة « ذى القرنين » ايضا الى ان الله تعالى لا يترك الظالمين يتحكمون في مصير المؤمنين دائما .. ولكن اقتضت رحمته ان يبعث اليهم من ينقذهم .. ثم يورث الأرض للصالحين بعد ان يدمر ما كان يصنع الظالمون .

ثم نزلت سورة الزمر وفيها :

○ ————— ﴿ قُلْ يَعْبَادِ

الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ (٨٥)

لماذا كانت الهجرة الى الحبشة ؟ :

كانت الحبشة أرض صدق ووفاء .. تحسن استقبال الغرباء .. وسبب ذلك وجود ملك راشد واسع الأفق . يصرف امورها بالحكمة والعدل .. فلا يظلم عنده أحد .

وقبل أن نستمع الى قصة هذه الهجرة من أم سلمة رضى الله عنها نشير الى أنه كان من بين المهاجرين عثمان بن عفان وزوجته « رقية » بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال فيهما رسول الله :

(انهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد ابراهيم ولوط عليهما السلام(٨٦)) .

وهذا يعنى أن أحدا من الصحابة لم يكن ينجو من الاضطهاد . حتى الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته .
وان الهجرة كانت قدر الجميع بلا استثناء .

من مقاصد الهجرة الى الحبشة :

وقد لخص المرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون مقاصد هذه الهجرة في أمور منها(٨٧) :

١ — البعد عن مواطن الفتنة في الدين للذين لا يستطيعون رد الاعتداء عليهم .

٢ — البعد عن كل ما يثير العراقيل أمام الدعوة .. وقد كان بعض الصحابة لا يطيق صبرا على ما يلاقيه من أذى مثل سعد بن أبى وقاص الذى ضرب مشركا فشحج رأسه في ظروف لا تمكن

(٨٦) مختصر سيرة الرسول للشيخ النجدي ٩ : ٩٣ من الرهيق المختوم .

(٨٧) محمد رسول الله ١٠ وما بعدها بتصرف .

المسلمين من حماية سعد رضى الله عنه وامثاله . . والأوفى بالدعوة أن تهاجر الى أن تكتمل العدة .

٣ — تخفيف الأزمات النفسية التى كان يحس بها رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما شاهد مسلماً يهان أو يعذب . وحتى يتفرغ للدعوة فى ظروف نفسية مواتية .

واذن (فكان من احكم التدبير . وحكمة السياسة أن يفتح صلى الله عليه وسلم لأصحابه باب الهجرة حتى يجدوا لأنفسهم متنفساً فى حركاتهم وهم آمنون على أنفسهم . يعبدون ربهم وهم مطمئنون . لا يهيجهم امر . ولا يفرعهم شيء .

ولا شك أن هذا لون من ألوان السياسة فى تبليغ الدعوة :

بدأ هامساً . فلما حرك تحرك معبراً اصدق تعبير عن هداية الاسلام فى اعظم محفل من محافل الحوار . الذى هيا الله له اسبابه وعوامله ودوافعه (٨٨) .

قصة الهجرة الى الحبشة :

قال ابن اسحاق : حدثنى محمد بن مسلم الزهرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى عن أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار ، النجاشي آمننا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسبع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا الى النجاشي فينا رجلين منهم جليدين وأن يهدوا النجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم يعنى الجلد فجمعوا له ادما كثيرا ولم يتركوا من بطارقتة بطريقا الا اهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص وكانا لم يسلمها بعد وامروهما بأمرهم وقالوا لهما : ادفعوا الى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم ثم قدما الى النجاشي هداياه ثم سلاه أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم .

قالت ام سلمة : فخرجنا حتى قدما الى النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار فلم يبق من بطارقتة بطريق الا دفعا اليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي وثالا لكل بطريق منهم : انه قد ضوى جاء الى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاعوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا انتم وقد بعثنا الى الملك فيهم أشرف قومهم ليردهم اليهم فاذا كلمنا الملك فيهم فائسروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم فان قومهم اعلى بهم عينا يعرفون عنهم ما لا يعرفون هم واعلم بما عابوا عليهم .

فقالوا لهما أى البطارقة : نعم قالت ام سلمة ثم انهما قدما هداياهما الى النجاشي فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له .

ايها الملك انه قد ضوى الى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاعوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن

ولا أنت وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم
وعشائرتهم لتردهم اليهم فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم
وعاتبوهم فيه .

قالت أم سلمة ولم يكن شيء أبغض الى عبد الله بن أبي ربيعة
وعمر بن العاص من يسمع كلام المهاجرين . النجاشي .

فقالت بطارقتة حوله : صدقا أبها الملك قومهم أعلى بهم عينا
وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم اليهما فليردهم الى بلادهم وقومهم .

قالت أم سلمة غضب النجاشي ثم قال لا والله اذن لا أسلمهم
اليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادى واختاروني على من
سواى حتى ادعوه فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم فان كانوا
كما يقولان أسلمهم اليهما ورددتهم الى قومهم وان كانوا على غير
ذلك منعتهن منهما وأحسننت جوارهم ما جاوروني . .

قالت أم سلمة : ثم أرسل أى النجاشي الى أصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا
أى الصحابة ثم قال بعضهم لبعض :

ما تقولون للرجل اذا جئتموه ؟

قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا صلى الله
عليه وسلم كائنا فى ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوا ، وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم
حوله سألهم فقالوا لهم .

ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه البلاد ؟

قالت أم سلمة : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب (رضوان الله عليه) فقال له أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وإداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

قالت أم سلمة : فعدد عليه — أى جعفر — أمور الإسلام وقال جعفر فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعد علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا نستحل من الجنائب فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

قالت أم سلمة : فقال له النجاشى : هل معك مما جاء به « أى النبى » عن الله من شيء ؟

قالت أم سلمة : فقال له جعفر : نعم .

فقال له النجاشي : فاقراه على .

قالت أم سلمة : فقرأ عليه صدرا من سورة مريم .

قالت : فبكى والله النجاشي حتى ابتلت لحيته « اى ابتلت بدموعه » وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال له النجاشي : ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ووجه النجاشي حديثه الى رسولى قريش قائلا : انطلقا فلا والله لا أسلمهم اليكما ، ولا يكادون .

قالت أم سلمة : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لأتينه غدا لأحدثه عنهم بما استأصل به خصراءهم يعنى شجرة أصولهم .

قالت : فقال له عبد الله بن ابي ربيعة وكان انقى الرجلين فينا : لا تفعل فان لهم ارحاما وان كانوا قد خالفونا قال عمرو : والله لأخبرنه أنهم يزعمون ان عيسى بن مريم عبد «يعنى عبد الله» .

قالت : ثم غدا عليه من الغد فقال له : ايها الملك انهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما فأرسل اليهم فسلهم عما يقولون فيه . قالت أم سلمة : فأرسل اليهم ليسألهم عنه :

قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط . فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض :

ماذا تقولون في عيسى بن مريم اذا سألكم عنه ؟

قالوا نقول والله ما قال الله ، وما جاءنا به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن .

قالت أم سلمة : فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟

فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم يقول :

هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول .

قالت أم سلمة : فضرب النجاشي بيده الى الأرض فأخذ منها عودا ثم قال :

والله ما عدا « يعنى تجاوز » عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود .

قالت أم سلمة : فتناخرت بطارقتة حوله حين قال ما قال .

فقال النجاشي : وان نخرتم والله .. ووجه حديثه الى المهاجرين قائلًا اذهبوا فأنتم شيوم « آمنون » بأرضي من سبكم غرم ثم قال : من سبكم غرم ما أحب أن لى دبرا « يعنى جبلا » من ذهب وانى أذيت رجلا منكم .

قال ابن هشام : ويقال دبرا من ذهب ويقال : فأنتم شيوم . والدبر (بلسان الحبشة) : الجبل . ردوا عليهما « أى على رسولى

قريش « هداياهما فلا حاجة لى بها فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فأخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه قتالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

ومؤامرة على النجاشى :

قتالت أم سلمة : فوالله أنا لعلى ذلك اذا نزل به « اى بالنجاشى » رجل من الحبشة ينازعه فى ملكه .

قتالت : فوالله ما علمنا حزنا قط كان اشد علينا من حزن حزنه عند ذلك تخوفا أن يظهر — اى ينتصر — ذلك الرجل على النجاشى ، فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه .

قتالت : وسار النجاشى وبينهما عرض النيل .

قتالت : فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل من رجل يخرج حتى يحضر وقبعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟

قتالت : فقال الزبير بن العوام : انا فقالوا : فأنت . وكان من أحدث القوم سنا .

قتالت : فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبج عليها حتى خرج الى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ثم انطلق حتى حضرهم .

قتالت : فقدمونا الله تعالى للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين له فى بلاده .

قالت : فوالله ان لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن اذ طلع
الزير وهو يسمى فلمع بثوبه وهو يقول : الا ايشروا فقد ظفر
النجاشى واهلك الله عدوه ومكن له فى بلاده .

قالت أم سلمة : فوالله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها ورجع
النجاشى ، وقد اهلك الله عدوه ومكن له فى بلاده واستوثق عليه
امر الحبشة فكنا عنده فى خير منزل حتى قدمنا على رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ..



والقصة على هذا النحو حافلة بالدروس والعبر :

ان قريشا كانت تعلم كيف تأكل الكتف .. وتعلم من يأكل
هذه الكتف !

ولذلك فقد اعدت للأمر عدته :

١ — اختارت أولا داهيتين من دواهى العرب .. هما
عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص الذى قال عن نفسه :
(ما دخلت فى شىء قط . الا خرجت منه) .

٢ — حمل المبعوثان من الهدايا أصنافا لاغراء الحاشية
القرية من الملك والمؤثرة فى اتجاهاته .

٣ — تكلمت الهدايا فعلا حين اشارت الحاشية بضرورة
تسليم المهاجرين اليهما .

٤ — ولولا يقظة الملك وحكمته لغرت الرشوة مجرى التاريخ ..

٥ — وحين حاول عمرو أن يطلق آخر سهم في جعبته طاش السهم . وانكشفت اللعبة عن هزيمة ساحقة لقريش .

من بركات الهجرة الى الحبشة :

عاد المهاجرون الى المدينة منتصرين :

لقد نضجت حقيقة الايمان في قلوبهم بهذه الاحداث العظام .
التي مارسوها . وتبين لهم أن الله تعالى هو الذى يدبر للدعوة .
ويمهد لها السبيل الى القلوب . ويسخر لهذا الدين من ينصره .

ولقد كان من بركات هذه الهجرة ان جاء مع جعفر بن ابي طالب بضعة وثلاثون رجلا من نصارى الحبشة .. متأثرين بما رأوا وما سمعوا من مهاجري الحبشة . جاءوا ليروا ويسمعوا على الطبيعة مصداق ما سمعوه وراوه من المسلمين في بلادهم . فلما جلسوا اليه صلى الله عليه وسلم . اعلنوا اسلامهم حين مست شغاف قلوبهم بركات النبوة .

وكان رد الفعل عنيفا لدى المشركين الذين فوجئوا باسلام الوفد الحبشى .. وهى نتيجة لم تخطر لهم على بال .

وها هو ذا ابو جهل يعنفهم قائلا :

ما رأينا ركبا احق منكم : ارسلكم قومكم تعلمون خبر هذا
الرجل . فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم . وصدقتموه
فيما قال ؟ . فقالوا :

سلام عليكم لا نجاهلكم . لنا ما نحن عليه . ولكم ما انتم
عليه (٨٩) .

وقد نزل في شأنهم قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ كُتِبَ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾
وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا
إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ
مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ
وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي
الْجَاهِلِينَ ﴿٩٠﴾

(٨٩) راجع تفسير ابن كثير والقرطبي .
(٩٠) سورة القصص الايات من ٥٢ - ٥٥

المفارقة العجيبة :

اطارت المفاجأة صواب ابى جهل فرمى الوفد الحبشى بدائه
هو ! وهو الحق ! ذلك بأن خطته مع قومه جاءت بنتائج عكسية !

لقد كانوا يتصورون أن عمرو بن العاص وزميله قادران على
العودة بالغلمان الآبقيين بما عرف عنهما من حنكة ودهاء .. بعد
اقناع النجاشي بما يزعمونه ..

وعاد المسلمون فعلا .. بعدما وقف النجاشي الى جانبهم
وتهيأت الظروف للاستمرار في الدعوة ..

عادوا منتصرين .. ومعهم من الحبشة وفسد هو في نفس
الوقت برهان الهى يؤكد انتصار الدعوة على أعدائها . وان مكر
قريش الى زوال .

وقد كان النجاشي يدين بالنصرانية .. وقيل انه مضى فتره
شبابه باليمين مننيا . فعرف لسان العرب . ودرس احوالهم .
فلما رد الله اليه ملكه . جعل من شكره لله تعالى اكرام هؤلاء
العرب المهاجرين المسلمين .

اسلام عمر :

بعد هذا الانتصار الخارجى للدعوة .. بدأت تباشير النصر
على الجبهة الداخلية .. باسلام عمر رضى الله عنه . والذى كان

دخوله الاسلام فتحا مبينا قويت به شوكة المسلمين . بقدر ما كان
ضربة موجعة للكافرين .. ولا يهز الشجرة الا فرع منها .

ولقد اهتزت الشجرة فعلا .. وبدأ ذلك واضحا ليلة الهجرة
حين وقف ابن الخطاب واثقا بنفسه مهددا كل من يعترض طريقه ..
فكان مع المسلمين على موعد مهد فيه السبيل الى انطلاقتهم بروح
معنوية ارتفع بها عمر بن الخطاب .. الذى انحاز الى الحق بنفس
القوة التى كان يقف بها الى جانب الباطل ..

دروس من الهجرة :

غريزة حب الوطن واحدة من الغرائز الناشئة فى كيان
الانسان .. وعندما اراد فرعون استنفار قومه لمواجهة موسى عليه
السلام .. هز فيهم غريزة حب الوطن ، لتنهض بهم ضد من يريد
حرمانهم من مستراد احلامهم .. وذلك فى قوله عز وجل :

○ ————— ﴿ اِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٤) يُرِيدُ اَنْ
يُخْرِجَكُمْ مِّنْ اَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَاِذَا تَأْمُرُوْنَ ﴿٢٥﴾ ﴿ (٩١)

واذا كان حب البقاء فطرة فى طبيعة الانسان .. فان حب
الوطن اعمق جذورا واوسع مدى ..

وطنى : لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

(٩١) سورة الشعراء الايتان ٢٤ — ٢٥

ولكن لماذا يحب الناس لوطنهم ؟ يجب الشاعر :

وحبب أوطان الرجال اليهمو

مآرب قضاها الشباب هنالك

انه مصدر الحياة الذى يشبع الحاجات .. ويغزو الجسوم
والارواح .. والتى تصبح بعد ذلك ديننا واجب الوفاء :

وللاوطان فى دم كل حر

يد سلفت . ودين مستحق

ومهما يلاقى المرء من عناء وأسى على أرضه .. ومن اهله ..
فان ذلك لا يخذش الولاء له ابدا :

بلادى وان جارت على عزيزة

واهلى وان ضنوا على كرام

ومن هنا يظل الحنين الى الوطن مشتتلا وان تناعت الديار
واشتط المزار :

كم منزل فى الأرض يالفه الفتى

وحنينه ابدا لأول منزل

وطن الروح :

واذا كان للوطن بمفهومه القومى هذه المنزلة .. فان وطن
الروح اعز وابقى !! واذا اضطرعت فى النفس محبة المكان ..
ومسئولية الايمان .. فلا خيار للمسلم ولا مفر من ركوب الأهوال
ومقارعة الرجال .. ولن يتردد ابدا فى هجرة وطنه انتصارا لمبادئه

التي هى حياته ، ولقد كانت هذه واحدة من أئنع الفضائل التي
أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بها ..

وأنت خير بصحابى أعزل .. وحيد .. يخرج من بيته
مهاجرا الى الله .. وهو يعلم يقينا انه قد يدفع حياته ثمنا لقراره ..
ومع ذلك يمضى .. لا يلوى على شئ ، ويمضى سعيدا قرير العين ..
وهو فى معمعان خطر لا يملك له دفعا ! بل وتصل السعادة حدا
يبكى فيه المؤمن هذا من شدة الفرح !!

وكذلك فعل أبو بكر رضى الله عنه ، فعندما أخبره صلى
الله عليه وسلم — كما ذكر ابن اسحاق :

(ان الله اذن لى بالخروج والهجرة . قال أبو بكر : الصحبة
يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم »
قالت عائشة : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم . ان أحدا
يبكى من الفرح . حتى رايت أبا بكر يومئذ يبكى) !!

وعندما حكى القرآن الكريم عن الرسول قوله :

(يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) .

كان ذلك يعنى شكواه من هجران القرآن .. ذلك الوطن
الروحى .. وخلود القوم الى التراب .. الى الأرض .. مستقرا
ومقاما .. وضرورة العودة الى وطن الروح .. لتزدهر المبادئ ..
وتكون الكلمة للحق .. والولاء للدين فوق كل وشيجة أرضية ..

الهجرة .. والامتحان العسير :

من أجل ذلك كانت الهجرة امتحانا عسيرا لأقدار الرجال ..
وترجمانا عمليا يثبت فيه المسلم انه نجح في الاختبار « العملى »
بعد نجاحه في الاختبار « النظرى » لأن حب الوطن فطرة كما رايت
في مستهل حديثنا .. واذن .. فالذين ينتصرون على هذه الفطرة
ايثارا لوطن الروح أن يبقى ويزدهر .. أولئك الذين امتحن الله
قلوبهم للتقوى ، يقول الحق سبحانه :

○ ————— ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ
رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ (١٢)

○ ————— ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا
فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴿١٢٢﴾

○ ————— ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا
لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴿١٢٤﴾

والذين يتقاعسون امام الظلم .. ثم رضوا ان يكونوا مع
الخوالب انما يحكمون على وجودهم الادبى بالاعدام ..

(١٢) سورة البقرة آية ٢١٨

(١٣) سورة آل عمران آية ١٦٥

(١٤) سورة النحل آية ٤١

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ
قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ
وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ (٩٥)

وقد ارتفع الصحابة الى قمة التضحية بهجرتهم تلك في احلك الظروف .. رجال اخلصوا لله طواياهم ، وترفعت عن المآرب همهم ، وزهدوا عن المتاع المذلول ، والامان المتاح ، واستهوتهم المثل العليا وحدها ، في عالم عج بالصم والبكم ، وربطوا مستقبلهم بمستقبل الرسالة المبراة التي اعتنقوها وتبعوها صاحبها المتجرد المكافح ، وهو لا ينى يقول :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ
اتَّبَعْنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (٩٦)

ان المهاجرين الاولين اثبتوا ان الايمان الناضج يحيل البشر الى خلائق تباهى الملائكة سناء ونضارة ، ان المسلمين — باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم هرعوا من مكة وغيرها الى « يثرب » يحدوهم اليقين .. وترفع رعوسهم الثقة ، فليست

(٩٥) سورة النساء آية ٩٧

(٩٦) سورة يوسف آية ١٠٨

الهجرة انتقال موظف من بلد قريب الى بلد ناء ، ولا ارتحال طالب قوت من ارض مجدبة الى ارض مخصبة ، انها اكراه رجل آمن في سربه ، ممتد الجنور في مكانه على اهدار مصالحه ، والتضحية بأمواله والنجاة بشخصه فحسب ، واشعاره — وهى يصفى مركزه — بأنه مستباح منهوب ، قد يهلك في أوائل الطريق او نهايتها ، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم ، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل واحزان ..

(ولو كان الامر مغامرة فرد بنفسه لقليل : مغامر طياش .. فكيف وهو ينطلق في ارض الله الواسعة ، يحمل اهله وولده ، وهو بذلك رضى الضمير ، مطمئن القلب بالايمان) .

واذ يستجيب المهاجر لمغارم الايمان الى حد يترك امراته وولده في مكة .. او يتنازل عن كل ما ملكت يداه راضيا .. فان الانصار كانوا ايضا عند حسن الظن بهم ايثارا وصل الى حد ان يعرض احدهم تطلق زوجته ليبنى بها اخوه المهاجر !! وذلك هو الايثار المذكور في قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ

هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا

وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ

شَخْصٍ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩٧﴾

- (١) انهم يحبون من هاجر اليهم .
- (ب) ولا يحسون بشيء من المرارة أو الحرج من رزق ساقه
الله اليهم .
- (ج) بل ويؤثرونهم على انفسهم بما يملكون .
- (د) ويؤثرونهم ولو اشتدت حاجتهم اليه .
- وبهذه الانتصارات المتلاحقة على النفس صاروا عنوان
الايثار .. ونجوا به من الشح القاتل لمواهب الانسان .. وتوجههم
الله بتاج الفلاح .. فصاروا ابدا عنوان الخصب والنماء ..

معية الله :

وعندما تصل علاقة الجند بالقائد الى هذا الحد .. ويحدث
التلاحم بين عناصر الأمة ، لتكون صفا واحدا وراء قائدها المطاع ..
فان معية الله تعالى تصحب هذا الموكب المبارك .. وهذا ما حدث
بالفعل .. حين نصر الله نبيه يوم الهجرة في وقت لم يكن للنصر
ورود في خيال احد ..

وهذا هو الدرس المستفاد .. والذي يجب ان تستوعبه
امتنا اليوم ، فعندما تدفع الأمة ثمن النصر من دماؤها .. فانها
بالدم المراق تستنزله من السماء .. وفي قصة ابراهيم عليه السلام
شاهد على ذلك ، فعندما وصل الوالد وابنه الى مرحلة الاستسلام
لامر الله تعالى .. جاءهما نصر الله :

○ — ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ
 أَنْ يَتْلِبْ بِرَهِيمٍ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَّاكَ تَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾
 وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴿١٠٨﴾

* * *

قيادة واعية :

ولا ننسى جهد الرسول صلى الله عليه وسلم هنا ، وعليه
 المدار في استنزال النصر المأمول :

(أ) فقد أحسن اختيار المكان والزمان المناسبين لتنفيذ
 الخطة .

(ب) وضع المسؤوليات في أعناق القادرين على الوفاء
 بتبعاتها .

(ج) ووضع اقرباءه وخلصاءه في مواجهة الخطر . . فقد
 اناب عليا رضي الله عنه لبيت مكانه .

(د) ثم اختياره الموفق لصاحبه في رحلته : أبى بكر
 رضي الله عنه .

(٩٨) سورة الصافات الايات من ١٠٣ — ١٠٧

انتصار بكل المقاييس :

يقول الحق سبحانه :

○ ————— ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ

إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ
إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ يَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْهَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴿١٩١﴾

والآية الكريمة حث للمسلمين على الجهاد .. وتذكير لهم
بأن تقاعسهم لن يترك الرسول وحده في الميدان .. وقصة الهجرة
شاهد صدق على ذلك حين نصره الله تعالى .. وكان نصره مؤزرا :
(أ) لم يكن معه الا رجل واحد .

(ب) فهما معا في جانب .. والدنيا كلها في جانب .

(ج) وقد أوشك اليأس أن يهدد ايمان أبى بكر حين وجد

الكفار على باب الغار لولا ايمان الرسول وثقته بربه .

(د) الباطل يرصد الأموال الطائلة لمن يقبض على النبی

صلی الله عليه وسلم وصاحبه .

(هـ) وتبدو تباشير النصر المؤزر حين انزل الله سكينته

عليه فاستقرت القلوب في الصدور .

(١٩١) سورة التوبة آية ٤٠

(و) وتنزل الملائكة لتحسم المعركة لصالح القلة المؤمنة
واضعة في اعتبار المؤمنين منذ اليوم ما للقوة المعنوية . .
وما للمدد الالهي من قوة تزرى بما يجمع المبطلون . .
حتى لا تكون لعدة الباطل وعدده من بعد وزن عند
النزال .

محاولة مأكرة لاحباط الهجرة :

بدأت خطة الاعداد لضرب الدعوة بالغيظ الذي بدت آماراته
في نظرات العيون . وفلتات اللسان :

○ ————— ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِيَزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ
لَمَجْنُونٌ ﴾ (١٠٠)

ثم يعبر الغيظ عن نفسه في التركيز على القيادة التي يراد
لها ان تزول :

○ ————— ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ
وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ (١٠١)

(١٠٠) العلم الاكبر ٥١

(١٠١) الانفال الآية ٣٠

ثم تتسع دائرة التآمر . حين توزع الأدوار بدقّة .. في
محاولة لوقف مسار الدعوة .. بالتسلط على الاتباع بالكيد ..
والحيلة ..

وقد كانت الهجرة مسرحا لهذا اللون من التآمر الذى يؤكد
أن القوم لم يحاربوا الدعوة اعتباطا .. وإنما هو الذكاء .. الواقف
يخطط .. ويراقب .. ويتابع :

مثال :

كان « عياش بن ربيعة » أخ أبى جهل من أمه .

فلما أخذ طريقه مهاجرا .. ماذا حدث ؟

ان « عياش » محسوب على أخيه أبى جهل .. وإعلانه
الاسلام .. ثم هجرته يشكل ضربة لمركز أخيه الأدبى ؟ !

واذن .. فمنعه من الهجرة .. وافساد عزبه عليها بقطع
رحلته .. مهمة لا يقدر عليها الا أبو جهل نفسه :

فهو صاحب المصلحة فى منعه ..

وهو صاحب الباع الطويل فى التشكيل بالمسلمين ..

وهو أخيرا : أخوه .. ومن منطائى الاخوة يمكن أن يتسرب
الى نفسه ليقتنعه بالعدول عن عزمه .

بداية المؤامرة:

لحق به أبو جهل في الطريق .. فقال له :

(ان أمك قد حزنت لفراقك . ونذرت ألا تغسل رأسها .
ولا تمشط شعرها . ولا تستظل من شمس . حتى تعود اليها .
فأنت أحب الأبناء اليها . وأبرهم بها .

فارجع الى أمك وأعبد ربك كما تحب في مكة ، لا يضيق
عليك أحد) .

لم يلجأ أبو جهل الى التهديد .. فما يفيد التهديد مع إيمان
ملك على النفس أقطارها .. فأخرجها من وطنها الحبيب مكة ..
إيثارا للدعوة .. ورغبة في اعلاء كلمتها .. مهما كان الثمن ..

ثم لم يحاول أبو جهل أن يلجأ الى الحوار والجدل حول
قضية الايمان والهجرة وجدوى ذلك .. بعد أن حسم أخوه المعركة
في نفسه وبدأ يمارس الايمان عملا ..

وانما اختار أسلوب الدهاء يهز جانب العاطفة من الأعماق
هزا عنيفا :

حيث صور له أمه .. في أسوأ حالاتها .. وقد أسلمت نفسها
لموت بطيء .. يوشك أن يطوى عمرها ..

ومن الذى يميثها ؟

أعز الأبناء لديها ..

وأبرهم بها ..

انه يقضى فى لحظة واحدة على كل مآثر الماضي ..

وهو بذلك يثير فيه عاملين :

عاطفة البنوة ..

ثم نخوة العروبة التى تخشى ان يعيرها الرفاق بالكارثة التى
سوف تحدث فى البيت !

الورقة الأخيرة :

ولعب أبو جهل بالورقة الأخيرة :

انه لا ينسى ان « عياش » .. رجل متدين .. مؤمن ..

وقد خبر هو بنفسه عمق هذه الغريزة عندما مارس التعذيب
مع الضعفاء من المؤمنين فما وهنوا ولا استكانوا ..

وبقيت العاطفة الدينية كما هى .. بل زادها التعذيب
اشتعالا ..

من أجل ذلك يطمئن أخاه على دينه .. فسوف تكون له حرية
العبادة مكفولة .. بلا عوائق .

الشباب المتدين يقع فى الفخ :

عرغت قريش من أين يأكل الكنف .. فسلطت .. « أبا جهل »
على أخيه .. وعرف أبو جهل كيف يأكل الكنف .. فجاأ الى أخيه
من جانبه العاطفى .. فاستطاع أن يستميله .. ووافقه الأخ
المخدوع .. تحت تأثير هذا الإيحاء ..

وما أكثر الذين يسقطون في الشراك المنصوبة تحت ضغط
الايحاء .. حين يتسربون كالخفاش في ظلمة الليل .. فيلمسون
القلب الذى يفتح أبوابه للطارق الماهر .. بلا مناقشة .. بل ربما
اختلقوا المعاذير تبريرا للهجوم الغادر .. في غيبة العقل الواعى ..
والذى يتحاشى المعرضون ادخاله طرفا في النزاع حتى لا ينكشف
المخبوء ..

وقد يقرأون على الضحية قصص الظلم .. والفقر .. وما
تزدحم به الحياة من كوارث .. لفتا للقلب الذى قد يكون واقعا
تحت صورة من صور الظلم .. فيميل ويستجيب .. وتدخل الأتكار
الغريبة .. فتعشش فيه .. والعقل نائم .. لا يدري ماذا فعل
الغزاة !

صوت العقل :

كان عمر رضى الله عنه رفيق « عياش » في السفر .. فلما
راى ما حدث .. كشف له عن المؤامرة قائلا :

ما يريد والله الا فتنتك عن دينك فاحذره . فوالله لو قد آذى
أمك القمل لامتشطت . ولو اشتد عليها حر الشمس لاستظلت .

كان عمر رضى الله عنه منطلقا من قاعدة :

لا يكن افضل ما نلت من دنياك : بلوغ لذة . او شفاء غيظ .
ولكن : اطفاء باطل . واهياء حق .

ومن ثم .. فقد حذره من اللذة العاجلة التى ستذهب بمتعة
الابد ..

وبصره بعمق المؤامرة المستهدفة دينه .. ثم ما يتذرع به
الباطل الذى يجيش جيوشا من الأوهام ليحاربه بها فى غير ميدان ..
فما قتاله عن أمه أوهام .. والخاوف التى يرمى بها فى سماء
حياته أضغاث أحلام .

عياش والإرادة المسترخية :

كان أبو جهل قد نجح فى سرقة « عياش » بهذا القول
المعسول . والوعد المبذول ..
وجاءت نصيحة عمر بعد فوات الأوان .. وكانت صوت
العقل الذى يدوى فى فراغ ..
قال له عياش معتذرا :

(أعود فأبرأى . ولى هناك أموال . وأرجع اليكم) .

التضحية من أجل الدعوة :

قال له عمر وهو يدرك أبعاد المؤامرة .
(خذ نصف مالى . ولا ترجع معي) .

وهكذا .. لا يكتفى بالنصيحة قولا .. وإنما يتنازل عن نصف
ثروته .. فى أشق الظروف الاقتصادية .. لينقذه من موت أدبى
محقق ..

لكن « عياش » أصر على الرجوع .. وبدأت فعلا رحلة
العودة أو النكسة . فانظر ماذا ترى ؟

الهدف البعيد :

لم يكن هدف أبى جهل مجرد كسب أخيه لانقاذ سمعته ..
وانما كانت غايته أن يجعل منه عبرة لمن تحدثه نفسه بالتمرد على
قومه من بعد .

من أجل ذلك احتال عليه حتى يقيده بالأغلال .. وليدخل به
مكة هكذا مبتذلا مهينا .. فى محاولة لاطهار قوته .. وطول يده
التى لا يفلت من قبضتها الهاريون :

قال له ابو جهل عبر الطريق :

(يا أخى : قد تعبت من ركوب بعيرى . الا تردفتى من
خلفك . فان بعيرك أسلس . ورحلك أوطأ .

فلما أناخ له البعير فاجأه أبو جهل من خلفه .. والتقى به على
الأرض .. وربطه بالحبال .. وعاد به الى مكة مكبلا .. وفى وضح
النهار .. ثم أذن فى الناس :

(هكذا فافعلوا بسفهاءكم اذا خرجوا عليكم) .

الايان يعلن عن نفسه :

ولندع الخيانة تعيش لحظة انتصارها المزيف .. لنأمل
الايان هناك فى الغار .. وهو يعلن عن نفسه .. مؤكدا هزيمة
الخانين :

فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأبى بكر : لا تحزن
ان الله معنا ..

لقد كان اطمئنانه الى نصر الله تعالى اقوى من اطمئنانه في
غزوة بدر ..

ويلحظ العلماء هنا انه :

لم يكن في الغار سلاح .. ولا جند .. ولا اهل في عون
خارجي ..

لقد كان اعتماده على ربه تعالى وحده .. ومن ثم كان اليقين
في نصر الله والفتح ..

اما في بدر : فقد كان هناك جيش .. وعتاد .. وتخطيط
مكان دعاؤه اعمق .. حتى لا يكله الله تعالى الى عدته وعدده ..
وكان بعض الصالحين يقول :

انا في معصيتي ارجى مني في طاعتي :

لأنني في الاولى اعتمد على ربي .. وفي الثانية اعتمد على
نفسي !

ومن هنا قيل :

اطلب رضوان الله تعالى عن طريق الفضل .. لا عن طريق
العدل :

مفضل الله اوسع من الدنيا ..

وعدله : في البلاء فقط ..

وليس هناك من شيء الا وفيه فضل منه سبحانه وتعالى .

الهجرة والنصر الاكبر :

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ
إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ
إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ﴾ (١٠٢)

تمهيد :

في تاريخ الأمم مواقف تعتر بها .. وتسترجع بتذكراها أمجادا
سلفت من عمرها .. تباهى بها الأمم .. وتشحذ بها الهمم التي
يجب أن تمضي على هداها من جديد . والى الإمام ..

وللمواقف العظيمة في تاريخ الاسلام مذاق فريد :

انها أعياد نقدرها قدرها .. ثم هي تعيننا على شكرها
كنعمة من الحق تبارك وتعالى شكرا يقيدنا .. لتظل ماثلة في
وعينا .. فتحث الخطى الى مزيد من النعم التي يصل الله سبحانه
جديدها بتقديمها .

(١٠٢) سورة التوبة آية ٤٠

وللهجرة النبوية موقعها الممتاز بين هذه الاعياد :

لقد كان لها اثرها فيما تلاها من غزوات ..

اما ما كان قبلها من مشاهد ونضحيات فلم يكن ليبلغ كماله
الا بالهجرة التي كانت تتويجا لما سبقها من هذه التضحيات ..

(ومن القرى الثلاث : مكة والطائف والمدينة .. حيث بدأت
الدعوة الى القارات الثلاث :

آسيا وأفريقيا وأوروبا حيث انتهى الاسلام تنقل كتاب الله
بالهدى والنور على يد الأمة الوسط . بقيادة رسولها الأعظم .
وجهاد أبطالها الميامين . فطهروا النفوس من الرجس . وحرروا
العقول من الشرك . وثلوا عرش قيصر . وقوضوا ايوان كسرى .
وشادوا على انقاضهما منبر محمد . ومئذنة بلال . ثم لم يلبث نور
الله أن غمر الشرق حتى بلاد الصين وطبق الغرب حتى بلاد
البنغال) (١٠٣) .

لقد سخر الله تعالى ليلة الهجرة من كل ما اصطلاح عليه
البشر من فنون الحرب .. فجاء نصره سبحانه في غيابها .. على
نحو يجعل من الهجرة محلى القوة كما يجب ان تكون ..

ففى الوقت الذى عز فيه النصر .. وقل السلاح .. يجيء
النصر الذى يهز الضمائر الجامدة .. لتصحو على الحقائق الجديدة
وعلى رأس هذه الحقائق ما اشارت اليه الآية الكريمة التى نزلت
عليه صلى الله عليه وسلم وهو فى الطريق :

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيْكَ مَعَادٍ ﴾^{١٠٤}

وهل كان في الامكان تصور عودته صلى الله عليه وسلم الى مكة منتصرا .. ؟

لقد كان قصاره — في مرأى العين — أن ينجو بنفسه من الخطر المحدق به ..

أما أن يأخذ الوعد بالعود الحميد .. وهو .. ومعه صاحبه .. ولا بارقة هناك من أمل .. فذلك هو التأييد الالهى الذى يجعل من هذا الحدث العظيم نجم هدى في بیداء الحياة .. ومن اشراقة يیزغ الصبح المبين .

(ان اعتماد القلب على قدر الله وكرمه يستأصل جرائم اليأس . ومنابت الكسل .

ويشد ظهر الأمل الذى يلج به الساعى أغوار البحار . العميقة . ويقارع به السباع الضارية فى فلواتها(١٠٥) .
بقدر ما يزيل الحجب لترى ما لا يرى بالعين المجردة ..

(١٠٤) سورة القصص آية : ٨٥
(١٠٥) الحرية فى الاسلام للشيخ محمد الخضر حسين .

وفى هذا الظلام الدامس رأى صلى الله عليه وسلم «سراقة»
وفى يده سوار كسرى !

كما رأى فى شرارة الصخرة يوم الخندق قصره المنيف !

سنة الحق تعالى فى خلقه :

ومن سنن الله تعالى فى خلقه أن ينصر سبحانه من ينصره .

﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١٠٦)

والسؤال الآن :

ماذا قدم الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه
من تضحيات استنزلوا بها نصر الله والفتح ليلة الهجرة ؟

حتى اذا تطلعت امتنا فى ظلمة اليأس الى بشائر النصر على
أعدائها وجدت فى الهجرة دليل عملها .. السائر بها الى مثله ..
سنة منه تعالى لا تتخلف ؟

ان نور الهجرة المضيء ليغنى امتنا عن استيراد أسباب النصر
والهزيمة من خارج نفوسها ..

لقد بدأ صلى الله عليه وسلم باعداد المجاهد المسلم . .
الواقف بآيانه فى الصف الاسلامى .. هذا الصف الفولاذى الذى
لا يقبل الاختراق ابدا !

(١٠٦) سورة الحج آية ٤٠

دعائم النصر :

ما هي دعائم النصر التي أرساها الرسول ؟

تتلخص هذه الدعائم في أربع (١٠٧) .

(١) ينبغي أن تكون صفة المسلم .. مسلمة مثله !

بمعنى أن يتحلى المسلم بكل صفة نبيلة جاء بها دينه ..
والا ..

فلو اتصف الكافر بالفضيلة وتخلّى عنها المسلم .. لانتصر
الكافر .. وهزم المسلم .

وقد كان المسلم تطبيقاً عملياً لمبادئ الإسلام على صعوبة
الموقف من حوله ، وتربص الباطل به .

ومن هذه المبادئ :

* الاخلاص :

لقد كانت الهجرة (اكره رجل آمن في سربه .. ممتد الجذور
في مكانه . على اهدار مصالحه . وتضحية امواله . والنجاة
بشخصه فحسب . واشعاره — وهو يصنف مركزه — بأنه مستباح
منهوب . وقد يهلك في أوائل الطريق أو نهايته .

(١٠٧) الفكرة هنا للتشجيع بديع الزمان النورسي .. وضحاها وعليها مزيد من
التطبيقات العملية .

وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم . لا يدري ما يتمخض عنه
من قتل وأحزان .

ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقليل : مغامر طياش ..
فكيف وهو ينطلق في طول البلاد وعرضها يحمل أهله وولده .
وكيف وهو بذلك رضى الضمير وضاء الوجه (١٠٨) .

انهم كما يقول ابن الجوزى :

رجال مؤمنون . ونساء مؤمنات : يحفظ الله بهم الأرض .
بواطنهم كظواهرهم .. بل اجلى ..

وسرائرهم كعلانياتهم .. بل احلى .

وهمهم عند الثريا .. بل اعلى .

ان عرفوا تنكروا . وان رثيت لهم كرامة .. انكروا .

فالناس في غفلاتهم . وهم في قطع فلاتهم . تحبهم بقاع
الأرض وتفرح بهم املك السماء (١٠٩) .

* الفدائية :

ان العلم وحده .. غرور وشيطنة .

والفن وحده .. لهو ومجون .

(١٠٨) صيد الخاطر ٦/٥

(١٠٩) فقه السيرة ١٦٥

والحب وحده .. هيام وخيال ..

واذن .. فلا تتم القدوة الا بالاتباع .. وان كان فيه الضياع!

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) .

وعلى هذه الفدائية رباهم صلى الله عليه وسلم .. فصاغ
الجندى المثالى المسبوك بقانون الاسلام لا ينفصل عنه .. وهو
اذ يدافع عن نفسه فانما — وفى نفس اللحظة — يدافع عنها :

و (هذا هو الرجل الالهى الذى :

لا ينثنى .. لانه الحق .

ولا ينحرف .. لانه العدل .

ولا يخاف .. لانه البأس .

ولا يضعف لانه القوة .

ولا يحيف لانه الانصاف .

ولو تعلق به اهل الأرض جميعا لمشى بهم مطمئنا .

لانه فى نفسه كقطعة من نظام السماء الذى يجذب الأرض
فى فضاءها .

وهذا هو الرجل الذى يتعرف به الناس معانى الاصطلاحات
النفسية القوية .

كالشهادة والنجدة . والصدق والاخلاص والايثار . وما اليها
من سائر المفردات التى يتألف منها معجم الفضيلة .

وهو في كل ذلك كئنه قاعدة من قواعد العلوم : تعطيك المثل
الذى تريده .

لانها هى ذلك المثل .. لا لانها تعطى وتمنع .

فلو اريد ذلك الرجل على الخيانة واللؤم والجبن والتعلق
والمداهنة ونحوها . مما يكون فى المتشبهين به لزاد فساء وكرما
واقداما وانفة واباء . كما يزيد طيب العود باحراقه) :

وقد كان على رضى الله عنه واحدا من هذه النماذج .. حين
بات فى فراشه صلى الله عليه وسلم .

* الأمانة :

وتجلى ذلك فى تكليف على رضى الله عنه برد الوائع الى
اصحابها من المشركين الذين لم يكونوا ليستأمنوا عليها احدا سوى
محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

(ب) الدعامة الثانية :

ان تكون الوسيلة .. مسلمة !

بمعنى ان يتسلح الحق بما يناسبه فى الشرف من كل وسيلة
تحمل سمته .. والا فان تقصير الحق فى اعداد الوسائل الحقنة لن
يصل به الى بر الامان .

وقد اتخذ صلى الله عليه وسلم كل وسيلة ممكنة .. وحقه .

● كتم الامر حتى عن اقرب المقربين اليه .

- ذهب الى ابي بكر على غير عادته في وقدة الحر .
 - أعد الراحلة .. التي بقيت زمنا طويلا تعلف بما يمكنها من قطع الرحلة بنجاح .
 - وزع الاعباء .. وحدد المواعع .. واتخذ الدليل وهياً الزاد.
 - بقى بالمدينة حتى اطمأن على خروج أتباعه .
- وعندما عاد من بيت أبى بكر الى بيته استعدادا للخروج حاصر المشركون البيت .. فأعانه القدر الاعلى على الخروج بحفنة من تراب كانه أثقل عليهم من جبل أحد(١١٠) .
- ولم تأت هذه النجاة عفوا او محابة .. ولكن الباطل كلما زاد فى وثباته .. وزاد الحق فى ثباته .. جاء نصر الله والفتح .



(ج) القاعدة الثالثة :

من القوة الى الفعل :

- لقد كان المسلم ليلة الهجرة على اوفى ما تكون القوة الفاعلة :
- (ومن فضائل القوة التى يوجبها الاسلام ان تكون وثيق العزم . مجتمع النية على ادراك هدفك بالوسائل الصحيحة التى تقربك منه .

(١١٠) من مقال للراعى .

بأذلا تصارى جهدك فى بلوغ مأربك . غير تارك للحظوظ أن
تصنع لك شيئا . أو للأقدار أن تدبر لك ما قصدت فى تدبيره لنفسك!
فان هناك أقواما يجعلون من اللجأ الى الله ستارا يوارى تفريطهم
المعيب وتخاذلهم الذميم .

وهذا التواء كرهه الاسلام (١١١) .

ولقد خرج الاسلام بهذا المسلم الايجابى المهاجر .. خرج من
القوة الى الفعل وان لم ترق قطرة دماء واحدة !

ان احراز النصر فى معركة ما .. راجع الى الجندى الذى
ادار ظهره للحياة الدنيا .. فتحرر من مطالبها .. ثم اعطى وجوده
كله للمعركة .. ثم كان بذلك قرير العين راضيا !

لقد بكى ابو بكر رضى الله عنه حين علم بالصعبة من الفرح !
ولم يكن يخفى عليه ما تحف بها من اخطار وقد يدفع حياته
فى مرحلة من مراحلها .. وسجلت ابنته عائشة رضى الله عنها
ذلك الموقف الخالد فى قولها :

(فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم . ان احدا يبكى من
الفرح حتى رايت ابا بكر يومئذ يبكى) (١١٢) .

(١١١) من حديث رواه ابن اسحاق .
(١١٢) خلق المسلم ١٢٠

وعلى رضى الله عنه يرضى ان ينام فى مضجع الرسول صلى
الله عليه وسلم فى ظروف تجمع الدلائل كلها على موت محقق يلحق
عليها رضى الله عنه .. ولكنه قبل راضيا .

فاذا اُضيف الى ذلك موقف صهيب الذى تنازل عن كل امواله
لينجو بعقيدته .. وابو سلمة الذى اغترب تاركا أهله وولده
للضياح .. اذا تصورنا ذلك تحقق لنا مقدار ما تحدثه هذه المواقف
من آثار خطيرة وردود فعل لدى كل من يراها وخاصة من اعداء
الدعوة الذين تتلالا فى عقولهم معانى الفدائية والاخلاص .. فتفرض
عليهم احترام المسلمين وان لم تحملهم على حب الاسلام والدخول
فيه .

ان موقفا واحدا من هذه المواقف يغنى عن جيش مدجج
بالسلاح .. كما يغنى عن جيش من الدعاة خبير بصناعة الكلام ..
وان أمة تملك جندا من هذا الطراز تملك فى نفس الوقت أسلحة
النصر .. وهى غير قابلة للهزيمة أبدا :

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة
لهم . قريبة الرؤية لأعينهم .

ولكن صور النصر شتى . وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة
عند النظرة القصيرة .

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش
الف عام كما نصرها باستشهاده .

وما كان يملك أن يودع القلوب من المعانى الكبيرة ويحفز
الآلوف الى الأعمال الكبيرة .. بخطبة مثل خطبته الأخيرة التى

يكتبها بدمه . فتبقى حافزا محركا للأبناء والأحفاد . وربما كانت حافزا محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال (١١٣) .

لقد كانت الهجرة منعطفا خطيرا على طريق الدعوة حدث به التغيير الكبير في نفوس المسلمين صاروا به جندا لحمته الاسلام وسداه .. وعندما غيروا انفسهم هكذا .. جاءهم نصر الله :

« فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا » سورة التوبة آية . ٤

أجل .. جاءهم النصر بعد أن نضجت مواهبهم .. واينعت نفوسهم فاثمرت ثمرتها من الصبر .. والوحدة .. والايثار .. ايثار المهاجرين والانصار معا .

ان شجرة البرتقال قبل أن تثمر — لا تحقق هويتها .. انما تحقق ذاتها في اللحظة التي تسفر اكمامها عن الثمار المدلاة تطعم الجائعين . وتسرع الناظرين !

اما قبل ذلك فهي عود اخضر كسائر الأعواد .. يمكن بعد قليل ان يببس ليكون حطباً في النار .

والاثار يساوى لحظة الميلاد في حياة البشر .
وقد ولد المسلم بالهجرة من جديد على ما يقول ابن تيمية :
(ان فكرة الأمة لا تتحقق لمجموعة من الناس الا اذا اشتركوا في فعل واحد) .

(١١٣) طريق الدعوة ٣٥٧ ج ١ جمع أحمد مائز .

وهاهم أولاء : المهاجرون : يشتركون في فعل واحد .. الى هدف واحد فلما تألفوا مع الانتصار .. ظهرت خصائصهم الفريدة التى لم تظهر فجأة .. وانما أبرزتها بوتقة الاحداث :
انهم يجتمعون .. بعد شتات .

ويظهرون .. بعد اختفاء .

ثم بدت الأخوة فى أجلى معانيها حين تجاوز كل انتصارى حدود مصلحة نفسه .. ليؤثر مصلحة عقيدته .

وهنا تبرز اكمل صور الانتصار على شهوات النفوس يجعل الانتصار فى الميدان العسكرى أمرا مفروضا .

المسلمون اليوم فى ضوء الآية الكريمة :

وما زالت الآية الكريمة تتجه الى المسلمين اليوم مذكرة لهم بما فى الهجرة من دلالة :

ما زالت تقول لهم :

إذا لم تنصروا الرسول .. بتطبيق الشريعة التى جاء بها .. إذا لم تنصروه وقد صرتم آلاف الملايين .. تملكون من الثروة ووسائل القوة ما تملكون .. إذا لم تنصروه ولديكم من وسائل الاعلام .. وطرائق المعرفة ما يهد أمامكم السبيل .

(الا تنصروه .. فقد نصره الله) يوم أن لم تكن عدة .. ولا اعتاد .. ولا مال .. ولا حيلة .

(١١٤)

﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

وبعد :

(فلولا الهجرة ما كانت النصره . ولولا النصره لما كانت بدر . ولولا بدر لما كان فتح مكة .

ولولا فتح مكة لما فتحنا القادسية واليرموك .

ولولا فتح القادسية واليرموك لما ورثنا ملكى كسرى وقيصر .

ولولا الفتوح التى تلت ذلك لما غير القدر مجرى التاريخ وعدل وجهة الدنيا .

وجعل البادية الجديدة . والعروبة الشتيتة عمراناً طبق الأرض بالخير . وملكا نظم الدنيا بالعدل . وديننا ألف القلوب بالرحمة . ومكن للعرب فى دورهم أن يبلغوا رسالة الله . ويؤدوا أمانة الحضارة . ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم .

ان تاريخنا الهجرى الذى انبثق من الغار . واندفق من قلوب المهاجرين والانتصار . وفاض مع المجاهدين على الأمصار والاقطار . لتتألق أيامه الغر فى ظلام الماضى كما تتألق الكواكب الزهر فى حلك الليل :

(١١٤) سورة الحج آية ٤٠

ارشدنا الضال فاهتدى . وحينما الذليل فاعتز . وعلما
الجاهل فتعلم . ثم مكنا في أرضنا الفسيحة . ودينانا العريضة
لعناصر الجبال والخير والحق . فتوثبت في كل نفس . وازدهرت
في كل جنس . وانتشرت في كل أفق وحققت لهذا الانسان طريق
العداوة وعبد الطغيان احاديث احلامه وهواجس امانيه : من الأخوة
التي يعم بها النعيم .

والمساواة التي يقوم عليها العدل .

والحرية التي تخصب بها المدارك (١١٥) .

ولقد أدرك الفاروق عمر بحسه البصير بعواقب الأمور هذه
الحقائق فجعل من الهجرة مبدا للتاريخ .. وكأنها عندها ولد المسلم
من جديد .. وكان احتفالنا احتفالا بيوم ولد الحق والقوة معا .
والذين جهلوا هذه المعانى التى ضمت عليها الهجرة فلم
يؤرخوا بها .. فاتهم ذلك الفهم العميق .. وتخطبوا في حنايا
الطريق .

مواقف من غزوات الرسول :

تظل البطولة فكرة نظرية في اذهان الناس : يصفقون لها .
ويهتفون بها . لكنها — عند هذا الحد — لا تسوقهم الى ميدان

(١١٥) من مقال للبرحوم أحمد حسن الزيت . مجلة الأزهر محرم ١٩٨٧

القتال كقوة دافعة .. وانما تصبح كذلك .. يوم يتاح لها بطل
جسور .. ينفعل بها . ويعيش لها . وحين يجادل المتفلسفون
لتحديد معناها في قاعات الدرس .. فانه في ساحات الوغى يحسم
المعركة بارادته الماضية قبل أن يحسمها بسيفه القاطع .

ذلك بأن عزة الامة وحماية يومها وغدها تعنى حماية البطل
ذاته وذريته معه وأحفاده من بعده .. فلا بد من الجهاد .

الا وان المصلحة الحقيقية ان يبقى الحق مرفوع الراية ..
وان دفع البطل حياته ثمنا .

فالمصلحة الحقيقية ان يضحى المسلم بمنفعته الشخصية .. لأن
المنفعة العظمى . ان يبقى دينه وترقى امته .

وهذا سر من أسرار الاعجاز الاسلامى الذى ربه الرجال
على الايمان بالمبدأ .. ثم العمل له والتفانى فيه . لتظل الحياة
ابدا متجددة القوة .. لا أن تكون مدرسة تلقن الدروس ولا تصوغ
النفوس .

واذا كانت المحن تصيب اقواما بالتمزق .. فانها في ضوء
الايمان تلهب المشاعر .. وتفجر الطاقة ليبدأ المجاهد الاقلاع
من جديد !

* * *

ولم تكن الغزوات في الاسلام مجرد مواجهة عسكرية تتلاقى
فيها السيوف .. فتتطاير الرعوس .

بيد أنها كانت مجالات كشفت عن المعادن النفسية التي
صنعها الاسلام على عينه وبدت فيها معادن في :

الرغبة في الشهادة — التجرد .

العزم الصادق .

الثبات على المبدأ .

الصبر الجليل .

العدل :

التسامح .

الايثار .

الى غير ذلك من قيم الايمان .. والتي نحاول الآن البحث
عنها .. والتفويه بها . من خلال هذه التأملات في مسار هذه
الغزوات :

دروس من غزوة بدر :

قبل أن يلتقى الفريقان .. ظهر التمزق في صفوف المشركين .
رغم ما لوحوا به من قوة .. ومع تهديد أبى جهل بتدمير جيش
المسلمين .. وأمله الوطيد في نصر حاسم .

وعلى الجبهة الاسلامية كان السباق المشتاق الى النصر
أو الشهادة . وكان ذلك الاختلاف طبيعيا بحكم اختلاف الدوافع
في قلوب الفريقين :

فالمشركون لا يدينون بعقيدة .. ومن ثم فافئدتهم هواء ..
فمن اين يستمدون القوة ؟

ومن اين يأتهم نصر هو خليف بالمسلمين المجتمعين تحت
راية الاسلام مدفوعين بعقيدة تجعل الموت احب اليهم من الحياة ؟

التمزق على الجبهة المعادية :

تقول كتب السيرة :

كان كل شيء فى غزوة بدر يؤذن بهزيمة المشركين ، وهى
بالنسبة لهم لم يكن لها داع اصلا ، وبدا فى صفوفهم التردد
والخور من اول الامر بينما بدا فى صفوف المسلمين العزم والتصميم ،
لذلك لم تغن عن المشركين كثرتهم .

قعده ابو لهب واناب عنه هشام بن المغيرة لدين كان له عليه ،
وتردد اميه ابن خلف ، لان صديقه سعد بن معاذ الانصارى كان
قد اخبره من قبل انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ..
يقول . انه سيقته ، فخاف امية ولما اخبر زوجته بما قال ، قتالت
له : والله ما كذب محمد قط ، احرص على الا تقابله ، فلما جاء
النداء للغزوة صمم على القعود ، وكان شيخا جسيما ، فاقسم الا
يخرج من مكة ، لان زوجته قتالت له انسييت ما قال اخوك اليربى ؟
قال لا اخرج ، والله ما كذب محمد قط .

وتناقل عتبة وشيبة ابنا ربيعة وقال لهما خادمهما عداس :
بابى وامى انتما ، والله ما تساقطان الا لمصارعكما ، وكانا ايضا
هم امية وزمعة بن الاسود ، وحكيم بن حزام استقسموا بالازلام

فخرج لهم القدح الناهى المكتوب عليه لا تفعل ، فزادهم تراخيا
ثم اجمعوا على الاقامة وعدم الخروج للحرب .

ثم بدا لهم موقف آخر ، وهو الثأر الذى كان بينهم وبين كنانة
فخشسوا أن تهجم عليهم من خلفهم ، فشبطهم ذلك أكثر .

وكان أبو جهل وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث اقوى
المتحمسين ، وكان كل همهم أن يقتلوا محمدا .. صلى الله عليه
وسلم .. وقد قتلوا هم الثلاثة وما كانوا يقدرون ذلك ، أغرى
أبو جهل عقبة ابن معيط .. وكان عقبة وقاحا سليط اللسان .
بأمية بن خلف ، فجاءه ، وهو فى مجلس قومه ووضع امامه مجبرة
فيها البخور ، وقال استجمر ابا صفوان ، فانما انت من النساء
فثار أمية ، وصاح مغلظا : قبحك الله وقبح ما جئت به ، وبذا
وصل أبو جهل الى شئ كبير مما يريد ، ثم جاء هو الى أمية ،
فقال له يا اباصفوان ، انك متى يراك الناس قد تخلفت . واثت
سيد اهل الوادى تخلفوا معك . فسر معنا يوما او يومين ثم
ارجع ، فتجهز مع الناس ولا تثبطهم ، فقام يتجهز وهو على تردد
وزوجته تذكره ما قاله له سعد بن معاذ وتنهاه عن الخروج . فخرج
على امل أن يرجع قبل المعركة .

ولم ينته هذا التردد بين القوم حتى وهم امام الميدان
يتأهبون للمعركة .

الشوق الى الجنة :

ولنترك المشركين يتلاومون .. ويتبادلون التهم المنذرة
بهزيمتهم سلفا .. لنرى ذلك التسابق البطولى الى ساحة الوغى :
على الجبهة الاسلامية :

تنافس الغلمان الصغار يحدوهم الامل فى صحبة الجيش
المؤمن لعلهم يرزقون الشهادة .. أو يسهمون فى صنع النصر
المأمول :

خرج الصبى عمير بن أبى وقاص — وهو فى مثل سن طالب
الاعدادية الآن — يرجو أن يقبله الرسول صلى الله عليه وسلم
جنديا .

وكان أخوف ما يخافه أن يرده الرسول . لانه صغير السن .
وساعده ذكاؤه المبكر على التخفى عن الانتظار .. فكان
يتوارى خلف الصفوف حتى لا يراه الرسول صلى الله عليه
وسلم فيرده .

سأله أخوه سعد بن أبى وقاص عن سر تخفيه فقال :

أخاف أن يردنى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأنا أحب أن أموت شهيدا .

ولقد بكى عمير كثيرا . لما أراد صلى الله عليه وسلم
رده لعدم بلوغه سن الرجال .. فرق له قلب الرسول .. فأجازه .
وقتل فى غزوة بدر شهيدا .

فأنظر كيف يستدبر الصبى الصغير ملاعب صباه .. وينحى عنه آمال أمثاله من الصغار فى الحصول على شهادة مدرسية .. او سياحية فى الأرض .. او جائزة رياضية او اجتماعية .. ليركز همه كله فى الخروج من هذه الدنيا .. لا زاهدا فيها وانما تدعيما للدين الجديد . وارساء لقواعده . ولتظل الدنيا آمنة فى حراسة الايمان .. ولم يملك اخوه سعد بن أبى وقاص وهو القائد الكبير أن يشفع له . فمصلحة المعركة فوق كل اعتبار .. وحتى قرابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانت لتحمل القائد على اجازته .

وانما الذى اجازه ما رآه الرسول من اصرار على القتال . رغم حداثة سنه .. وما أحسه من طموح مبكر الى معالى الأمور . فأجازه اجازة كانت علامة على الطريق . أمام الشباب حتى يقدموا حياتهم للدعوة .. ولا تكنى الثروة والجدال بعيدا عن ساحات النضال !

وفى الوقت الذى يتصارع فيه افراد الأسرة اليوم حول الميراث .. واى الاخوة اولى بهذا السكن او ذاك .. نرى اشبال بدر يتصارعون حتى مع آبائهم حول أيهما اولى بالاشتراك فى المعركة .. ويمتد الصراع الى درجة اللجوء الى الاقتراع سبيلا الى فض النزاع .

فإذا كانت القرمة من نصيب الصبى لم يتنازل لأبيه اذا كان المتنازل عنه الجنة .. ولو كان النزاع حول الدنيا كلها .. لتركها لأبيه تقديرا لأبوته واستهانة بالدنيا التى لم تكن شغله الشاغل !

عبدل يسمو على السمو :

ويتجلى بعد آخر من أبعاد البطولة : في مدى الصعوبة التي كان يعانيتها المسلمون في طريقهم الى بدر الى جانب قلة عددهم بازاء المشركين :

فالمسافة بين بدر والمدينة تزيد على مائة وستين كيلو مترا ومع طول المسافة ووحشة الطريق . فلم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه سوى سبعين بعيرا يعتقبونها .

روى أحمد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

كنا يوم بدر : كل ثلاثة على بعير — يتعاقبون — وكان « أبو لبانة » وعلى بن أبى طالب زميلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال :

فكانت عقبة — أى دور — رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلنا له :

نحن نمشى عنك — ليستمر راكبا — فقال :

ما انتما بأقوى منى على المشى . ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما(١١٦) .

وهنا نقف على سر من أسرار الفدائية الاسلامية تتمثل في الأسوة الحسنة في رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكيف

(١١٦) في المسند رقم ٣٩٠١ — ٣٩٦٥ وسنده حسن . ورواه الحاكم ٢٠/٣ وقال حديث صحيح على شرط مسلم .

حرص على تحمل نصيبه من الكفاح .. مؤكدا قدرته على ذلك .
كاشفا عن شدة تواضعه صلى الله عليه وسلم وكيف أعلن مع
علو مقامه انه في حاجة الى الثواب وهكذا تعيش القيادة المؤمنة
« بين » جنودها فتشدد من أزرهم .. ومن ثم تقوى بها الأواصر
ويتحقق النصر .

بينما القيادات الدنيوية تدير المعارك من خلال القصور
المشييدة .. فتختفى الثقة الجامعة بين القاعدة والقامة .. فمن أين
تهب عليها رياح النصر ؟ !

التجرد :

قد يحملك المبدأ على أن تتبرع « بمصروفك اليومي » في مشروع
خيري .. أو التنازل عن مكانك في الحافلة المزدحمة .. أو عن
دورك في طابور تحت اشعة الشمس .

ولكن ما اسهل المهمة حينئذ الى جانب ما تطالعنا به غزوة
بدر الكبرى من حرص على التنازل عن الحياة ذاتها .. في سبيل
المبدأ . واتمى من ذلك أن تفرض عليك الظروف أن تواجه أباك
في معركة حياة أو موت .. وتلك قمة الاخلاص للمبدأ . وهذا
ما حدث في غزوة بدر . يقول الشيخ محمد الغزالي :

(في هذه المعركة : التقى الآباء بالأبناء . والاخوة بالاخوة .
خالفت بينهم المبادئ . ففصلت بينهم السيوف .

وفى عصرنا هذا قاتل الشيوعيون مواطنيهم . ومزقوا أغلى
الأواصر الإنسانية فى سبيل ما يعتقدون .

فلا عجب اذا رايت الابن المؤمن يفاضب اباه المللحد . .
ويخاصمه فى ذات الله . والقتال الذى دار فى بدر سجل صورا
من هذا النوع الحاد :

كان ابو بكر مع رسول الله .

وكان ابنه عبد الرحمن يقاتله مع ابي جهل .

وكان عتبة بن ربيعة اول من بارز المسلمين .

وكان ولده ابو حذيفة من خيار اصحاب النبى . فلما سحبت
جثة عتبة لترمى فى « القليب » (١١٧) نظر الرسول الى ابي حذيفة
فاذا هو كتيب قد تغير لونه فقال له :

لا والله يا رسول الله . ما شككت فى ابي ولا فى مصرعه .

ولكنى كنت اعرف من ابي رايا وحلما وفضلا . فكنت ارجو
ان يهديه ذلك الى الاسلام . فلما رايت ما اصابه . وذكرت ما مات
عليه من الكثر . بعد الذى كنت ارجو له . أحزننى ذلك ! . فدعا
له رسول الله بخير . وقال له خيرا (١١٨) .

(١١٧) البئر .
(١١٨) ابن هشام .

من مفارقات القدر :

وكم للقدر الأعلى من سخریات :

لقد كان أبو جهل هو المحرض الأكبر على قتال المسلمين في بدر .. ورفض الاستماع الى نصح الناصحين بالرجوع بعد أن نجحت المعير ..

الى جانب مسئولية إيذاء المسلمين والتشكيل بهم في مراحل الدعوة الأولى ..

ومن سخریات القدر أن يكون مصرعه عبرة لمن اعتبر ..
بما حام حوله من مهانة ما كانت تخطر على رأس الفساد . المدل بقوته وجبروته :

يقول عبد الرحمن بن عوف (١١٩) :

أتى لى الصف يوم بدر . اذا التفت فاذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن .

قال لى أحدهما سرا من صاحبه :

يا عم .. أرنى أبا جهل . فقلت :

يا ابن أخى .. ما تصنع به ؟ ! قال :

عاهدت الله ان رأيته أن أقتله . أو أموت دونه .

وقال لى الآخر سرا من صاحبه مثل قوله :

(١١٩) راجع البخارى باب المغازى .

قال :

فما سرنى أنى بين رجلين مكانهما . فأشرت لهما اليه .
فشدنا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه . وهما ابنا عفراء) .

لقد كان سن الفتى صغيرا .. لكن عقله كان كبيرا .. وكانت
آماله كبارا أيضا !

ولقد بلغت شدة حرص كل منهما على قتل أبى جهل أن أسر
الى عبد الرحمن بن عوف بعيدا عن رفيقه فى السلاح ليخلص وحده
الى أبى جهل متحملا مسئولية مواجهة هذا الطاغية . ويشتد تعجب
ابن عوف أمام اصرار كل منهما .. وأمام حكمة كل منهما أيضا ..

ويسعد « الشيخ » عبد الرحمن أبو عوف .. حين يراها
وقد انطلقا صقرين كاسرين لينقضا على الفريسة .. فقتلاه ..
ولم ينفعه ابنه « عكرمة » الذى خف لنجدته دون جدوى . ولقد
دس وجهه فى التراب حتى لا يراه المسلمون .

ولكن عبد الله بن مسعود اكتشفه فلما عرفه قال له :
اهذا انت يا عدو الله . لا تزال فيك بقية من حياة ؟ ووضع
قدمه فوق عنقه وداس عليه . فلما نظر اليه أبو جهل قال له : لقد
ارتقيت مرتقى وعرا يارويعى الغنم !

فقال ابن مسعود : انظر يا عدو الله ما يصنع بك راعى
الغنم ..

وشد عليه بقدمه حتى مات تحت حذائه !!

ومن تعاجيب الليالى .. ان ابن مسعود صاحب القدم
الصغيرة . والتي كان الصحابة يتندرون بدقتها وصغرها تثبت
اليوم انها كما اشار الرسول صلى الله عليه وسلم تزن جبل احد !
ومن كان يصدق ان نهاية ابي جهل ستكون على يد ابن مسعود
بالذات ؟

ولكن هذا .. هو ما حدث .. وانتصر الحق بفضل الله
وعلا لواؤه وخذل الباطل وطائش سهمه .

كيف عامل المسلمون اسرى بدر ؟ :

كان من نتائج غزوة بدر ان وقع في قبضة المسلمين عدد من
الاسرى .. ومن خلال معاملة المسلمين لهؤلاء الاسرى بدت الاهداف
الحقيقية للجهاد فى الاسلام .. وهى انه لا يستهدف اراقة الدماء .
لكنه يتوخى عمارة الحياة وارساء دعائم الاخوة الايمانية .. والعدل .
والمساواة والايتار .

كان من بين الاسرى « ابو عزيز عمير بن هاشم » اخو مصعب
ابن عمير .

وكان مصعب صاحب اللواء يوم بدر . و « أبو عزيز »
صاحب لواء المشركين . وهر به أخوه مصعب وواحد من الانتصار
يشد يديه . فأوصاه بأن يشد وثاقه قائلا :

ان أمه ذات متاع لعلها تفديه منك .

فقال له أبو عزيز : يا أخى .. أهذه وصاتك بى ؟!

فقال له مصعب :

انه أخى دونك (١٢٠) !!

وانت واجد فى هذا الموقف أخوين شقيقتين فرقت بينهما
العقيدة فكان أحدهما فى طليعة المؤمنين .. بينما الآخر فى مقدمة
الكافرين .. وكان المتوقع أن يخفى مصعب مشاعره الحقيقية تجاه
أخيه . مجاملة له فى أخرج لحظات حياته .

فإذا لم يسعفه بوصاة ترحمه .. فلا أقل من أن يسكت ولو
على مضض !

لكن مصعبا يصرخ بمشاعره على الملأ . انتصارا لايمانه .
ومغالة به . ضارباً عرض الحائط بعلائق الدم .. التى كانت
تجمعهما بالأمس فى معارك الجاهلية بالحق وبالباطل ..

وحين يعاتبه أخوه عمير بمرارة على ما كان منه مذكراً إياه
بأخوته .. يفاجئه مصعب بما يؤكد انقلاب حسابات الجاهلية رأساً

(١٢٠) سيرة ابن كثير ج ٢/٤٧٥

على عقب .. فى ضوء الايمان الذى صار به المسلم أخاه .. دون
« عمير » الذى يقطع بكفره كل صلة للرحم !

لكن ذلك لم يمنع من حسن معاملة الأسرى بصفة عامة :

أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم خيرا فقال :

(استوصوا بهم خيرا .

ويقول « أبو عزيز » نفسه شاهدا بذلك :

كنت فى رهط من الأنصار . حين أقبلوا بى من بدر .

فكانوا اذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصونى بالخبز .

وأكلو التمر . لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم اياهم

بنا . ما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز الا نفحنى بها . فأستحى .

فأردها . فيردها على . ما يمسها (١٢١) .

لقد أتيحت لعمير أن يرى لونا من التعامل ما رأى مثله قط .

ولعله بدأ يتحقق من صدق أخيه « مصعب » فى دعواه أخوه المسلم

دونه ..

فما يراه من الايثار شاهد بصدق ما يقول .

(١٢١) المرجع والموضع السابق .

وكان بين الأسرى : العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وابن عمه عقيل بن أبى طالب . وأبو العاص ابن الربيع زوج بنت النبی صلى الله عليه وسلم . وما استطاع الرسول أن يصدر بشأنهم قرارا يستثنيهم من الأسر .

وقد تحدثت بعض الروايات عن المة صلى الله عليه وسلم لما كان يسمعه من أنين عمه في القيد .. فأصدر أمرا بالتخفيف عن كل الأسرى تفضلا .. كشف لهؤلاء الأسرى جوهر الاسلام الأخلاقي .. والذي لفت الأنظار اليه .. وعطف القلوب عليه ..

وبهذه الأخلاق دخل الناس في دين الله أفواجا ..

وإذا اكتشف المشركون اليوم كيف يجيد المسلمون صناعة الموت بأسلحتهم .. فقد اكتشفوا أمضى سلاح لتحقيق النصر وهو: ما يتمتع به المسلمون من اخلاق كريمة قوية .. هي أربى من كل وزن .. وأمضى من كل سلاح .

وإذا قال « جنكيز خان » الطاغية : اننى لا أفتح البلاد ولكن أتسلمها .. يعنى أنه يخرب القلوب أولا .. حتى اذا لم يبق الا الحطام الهش جاءه مستسلمنا ..

اذا كان الطاغية يفعل ذلك فقد كان الفتح الاسلامى شيئا غير هذا تهاما :

كان صلى الله عليه وسلم يحيى القلوب ولا يحطها .. يبعثها من رقادها لتستشعر حياة جديدة لا عهد لها بها ..

فاذا هى بهذه الصحوه آتية اليه مسلمة لا مستسلمة ..

مسلمة وجهها الى الله بقلوب ذاقت طعم الحق فوضعت وجودها كله لحساب هذا الحق .. بل انه لاقل ما تقدمه في سبيله !

من آثار بدر :

اعتاد الناس أن يتحدثوا عن « غزوة بدر » وآثارها في السابع عشر من رمضان يوم عيد الغزوة فاذا مضى هذا اليوم جمعوا أوراقتهم وطووها الى العيد القابل .. يفعلون ذلك وتفعله معهم أجهزة الاعلام ، وذلك خطأ كبير في تناول التاريخ . فالتاريخ عبر وعظات ، وهو في الاسلام أكثر من ذلك لأنه سيرة العقيدة والدفاع عنها . وبعد أيام من عيد غزوة بدر نعود إليها لنذكر من آثارها ما يجب أن نذكره على الدوام ، لأنه من القضايا الشاملة في حياة الأمة الاسلامية .

فمن مشاهد الجلال والجمال في غزوة بدر : مشهد الاخوة السبعة : الأشقاء :

عوف بن الحارث . ومعاذ . ومعوذ . أبناء عفراء الانصارية .. من زوجها « الحارث » .

ثم أخوتهم لامهم — : اياس . وعاتل . وخالد وعامر . من « البكير بن عبد باليل » .

ومع اختلاف الوالد .. وقسوة الظروف .. لكن الام الرعوم تقدمهم جميعا ابطلا الى ساحة الوغى .

واذا كانوا يقولون في القرية : فلان « تربية امرأة » ازراء به .
وسخرية منه فقد كانت « عفراء » هى الرد الالهى المثبت جدارة
المرأة المسلمة بالتربية .. فى اعلى مستوياتها .. حين صاغت
منهم رجالا : لم تفرقهم مذاهب الفن .. ولا ملاعب الكرة ، وانما
وحدتهم الايمان ، فكانوا على قلب رجل واحد .. وجهها لوجه امام
الطفة ، وكان شرفا لهم ان ينتسبوا الى امهم : عفراء التى صانت
الامانة وبلغت الرسالة .

سقوط مراكز القوى :

وعلى يد « عوف » واخيه « معوذ » كانت نهاية أبى جهل
فقد نفذا اليه من بين الصفوف كالسهم المارق . نصرعاه . وتركاه
لابن مسعود رضى الله عنه . يجهز عليه . ويطأ رقبته بأصغر قدم
لصحابى . تثبت اليوم انها فعلا تزن جبل أحد . ثم تخلو الساحة
من مركز القوة الذى يسقط اليوم على يد فتيان فى عمر الزهور .
ولكن فى قوة الأسد الهصور !!

السلام .. من مركز القوة:

كان انتشار المسلمين فى بدر نقطة تحول فى تاريخ الاسلام
قضى الله تعالى به على أهمية العدد والعدة فى غيبة الايمان ..
وكان الظن انهما أساس الانتصار .. فى الوقت الذى برزت أهمية
العقيدة المسلحة بالقوة .. على نحو قلب حسابات العدو .. وحطم
مقاييسه فى وزن أقدار الرجال .. والتنبؤ بنتائج الحروب .

ومع ان الانتصار في معركة بدر كان حاسما . . الا ان الامر
بالاعداد للجهاد مازال مستمرا . . بينما دماء المشركين لا تزال
ساخنة عبر الصحراء .

جاء ذلك في قول الحق سبحانه وتعالى بعد بيان احداث
الغزوة في سورة الانفال :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
سَبَقُوا إِيَّاهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ ٥٩ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ
مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ أَخْلِيلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا
مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾
* وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ
حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ ۚ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴿١٢٢﴾
والآيات الكريمة تطالعنا بالحقائق الآتية :

١ — قد يحرز العدو تقدما في مجال الدعاية . . ومن الناحية
العسكرية قد يكسب نصرا خاطفا فيحسب انه سبق في المضمار

سبقا يدل به عليكم ويزهو . ولكن ذلك ظن خاطيء فتجربة الامم
تفند هذا الزعم ..

ذلك بأن من ورائه قوة قادرة محيطة من جند الحق سبحانه..
الذين ان فاتهم مجاراته في حملة التضليل .. فما فاتهم ان يتركوه
على الساحة اشلاء ممزقة ..

٢ — وحتى يظل زمام المبادرة في ايدي المؤمنين .. فلا بد
من الاستمرار في اعداد القوة جهد الطاقة .. ليبقى المسلمون في
اذهان أعدائهم قوة مخيفة تشل حركتهم .. وتلزمهم التريث قبل
كل خطة يديرونها .. او شر يبيتونه ..

هم .. ومن وراءهم من قوى عالمية تهدم في الفى وتزين
لهم العدوان ..

ان العدو المباشر واجهة تخفى نوايا حاقدة تنربص بالاسلام
الدوائر .. ولا بد ان يكون الديدبان يقظا .. مسلحا بالوعى ..
والقوة ..

٣ — وهذه المسئولية الكبرى تفرض على كل انسان في
الدولة ان يسهم في المعركة مهما كان وضعه المالى .

لان العدو يستهدف الدين .. وهو حياة الجميع .. فلا بد
حينئذ من ان يظل شملهم جميعا .. وعلى ارتباط وثيق بالمعركة
التي لا تغيب عن بالهم .. بكل صورة من صور البذل .

○ ————— ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا ۖ ﴾

(١٢٣)

﴿ مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٣٥)

٤ — اذا نبئت فكرة السلام في اذهان الأعداء ودعواكم هم اليها فلا جناح عليكم في قبول سلام تتحقق به ارادة الاسلام له ..
لانه حينئذ يجيء من مركز القوة . قوتكم انتم التى ملأت اعين الأعداء
فسعوا اليكم طائعين ..

اما السلام المرفوض فهو ذلك الذى تدعون انتم اليه من واقع
الضعف والتخلف .. على ما بقول سبحانه وتعالى :

○ ————— ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ ۖ ﴾

(١٢٤)

﴿ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهَ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَ اللَّهُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٣٥)

ان سلاما من هذا النوع يصبح استسلاما يباه وضعكم
القيادى الذى حصلتموه بهشيئة الله سبحانه .. والايمان به ..

على ان تذكروا جيدا ان رغبة الأعداء فى المعاشة السلمية
مشكوك فيها على ما يفيدده حرف الشرط (ان جنحوا) .

انه « جنوح » أى ميل .. بالراس قد يكون خداعا بينما
اتداهم متشبثة بعقائدهم ومكائدهم .. فكونوا منهم على حذر ..
ثم ان حرف الشرط « ان » يقوم بدوره فى دعم هذا الشك فى نواياهم

(١٢٣) سورة الأنفال آية ٦٠

(١٢٤) سورة محمد آية ٣٥

ثم كونوا اشد حذرا من الاعتماد على قوتكم المرصودة . .
وتوكلوا على الله وحده . .

(وتوكل على الله) .

ان القوة ليست فى نوعية السلاح . . بقدر ما هى فى يد
تحمله . . يجبها الله ورسوله . . وبالأمر القريب وقف زعيم عربى
يتحدى دولة كبرى . .

وكان التحدى فى ذاته مقبولا . . لولا أنه كان اعتمادا على
قوة البشر الذاتية . . ونسيان واهبها سبحانه . . فكانت الهزيمة
المشهورة بالنكسة ؟ !!
وحين صححنا ذلك الفهم جاء نصر الله والفتح . . ويبقى
الا تنسينا أفراح النصر واجب الاعداد المستمر لمعركة مستمرة بين
الحق والباطل . . ولن تضع أوزارها مادامت هناك حياة . .

من صور الاعداد للمعركة :

كل كلمة . . كل حركة . . كل جهد مبذول من اجل المعركة . .
محسوب بميزان الحق الذى لا يظلم مثقال ذرة . .

○ ————— ﴿لَمَّا كَانَ لِأَهْلِ

الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يُرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَلَا يَطْعُونَ مَوْطَأًا يَغِيطُ الْكَفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ
نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٥﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً
وَلَا يَقْطَعُونَ أَوْدِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٦﴾

(١٢٥)

وقد تكفلت السنة النبوية بتفصيل ذلك الاجمال في مثل قوله
صلى الله عليه وسلم :

(ان الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد) :

صانعه يحتسب في صنعته الخير ..

والراى ..

ومنبله ..)

اى ان الرصاصة الواحدة .. التى تنطلق في سبيل الله ..
تفتح ابواب الرضوان امام كل يد شاركت فيها اعدادا .. وتنفيذا ..
على شرط ان يتم ذلك استجابة لبواعث الخير .. واستهدافا
لاعلاء كلمة الله ..

أى أن السلاح فى الإسلام للتعمير لا للتدمير .. وحين يشرعه
المسلم فى وجه عدو الله وعدوه .

فمن أجل أراهبه وكف يده حتى لا تمتد بأذى .. حفاظا على
الدماء أن تراق .. مهما كانت عقيدة الإنسان ..

وقد كانت استجابة المسلمين للأعداد صادقة :

كان عروة البارقي « يملك وحده سبعين فرسا معدة كلها
للقاتل ؟ !

وتصور معى هذا الجهد الموصول فى رعاية هذا الحشد من
الخيال .. والذى يشغل الرجل وأهله .. وولده .. وتساعل معى:
كم يبقى من عمر هذه الأسرة . تنفقه فى ملذات الحياة ؟ !

لا ريب أن المعركة ملأت حياتها الى حد لم يعد فى حياتها
وقت للهو أو لعب .. حتى لغلمان لابد لهم من اللهو واللعب !
حتى الخيل نفسها تندمج فى الدور .. وتصبح ملاقاته العدو
أيضا شغلها الشاغل ؟ ! :

فمن معاوية بن خديج :

أنه مر على أبى ذر وهو قائم على فرس له .

فسأله :

ماذا تعالج من فرسك هذا ؟

فقال :

انى اظن ان هذا الفرس قد استحيب اه !

قلت :

وما دعاء بهيمة من البهائم ؟ !

قال :

والذى نفسى بيده .. ما من فرس الا وهو يدعو كل سحر

فيقول :

اللهم .. انك خولتني عبدا من عبادك .. وجعلت رزقى

بيده .. فاجعلنى احب اليه من اهله وماله وولده ..

فانظر كيف كانت امنية الفرس .. ان يظل فى وعى صاحبه

ركوبا فى معركة الحق .. والا يشغل عنه بما يخلد به الى الارض

من مال واهل وولد ..

انه التدبير الالهى اذن .. يجعل من البيئة الاسلامية معسكرا

تدريبيا يوحى كله بالجهاد والاعداد .. الى حد يجعل من تعلم الرمى

عبادة يقترب بها العبد الى ربه .. بحث لو نسى الرمى يوما كان

ذلك معصية ينبغى التوبة منها بالرجوع الى اجادتها والتدريب

عليها ..

يقول صلى الله عليه وسلم ؟

(من ترك الرمى بعد ما تعلمه رغبة عنه .. فانها نعمة

تركها .. او كفر بها) على أن يتم ذلك في حدود الاستطاعة
البشرية .. وتبقى نتيجة المعركة بعد ذلك الى الله وحده ..

درس من غزوة بدر :

وفي بدر حاول بعض الصحابة ان يستجيبوا لدوافع النفس
الراغبة في الراحة .. فرارا من تكاليف الحق .. فحسم الله تعالى
القضية في قوله تعالى :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ
الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿٦٦﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ
مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦٧﴾
وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ
غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ
بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ
وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١٢٦)

(١٢٦) . سورة الانفال آية ٥ - ٨

لقد كرهوا خوض غمرات القتال ايثارا للراحة والرخاء
الحاصل بامتلاك العير ..

وجادلوا الرسول في ذلك جدال من يرى الموت بعينه فهو
يتوقاه .. ولكن الله تعالى يريد احقاق الحق والتمكين له في الأرض .
ولن يكون ذلك بالاخلاق الى الراحة . بل بحمل السلاح دفاعا عنه .
ولو اتبع الحق أهواءهم لما ارتفعت للحق راية . ولا سمعت
له كلمة . ولا انتصب ميزان .

ومن هنا كان لابد من القتال تحقيقا لمراد الله تعالى .. وتدريبا
للكثائب المؤمنة على العيش في الظروف الصعبة تمرسا بها . حفاظا
على الأمانة التي حملوها .. ليسلبوها للأجيال من بعدهم .. حتى
تظل كلمة التوحيد باقية .. ودولة الحق قائمة .

بين بدر واحد :

بعد انتصار المسلمين في بدر تحقق لهم ما يلي :

- ١ — ساد الاسلام وعلت كلمته .
- ٢ — استسلم بنو قينقاع من اليهود بعد ان حاصروهم
المسلمون لنقضهم العهود وايدائهم المسلمين .
- ٣ — أسكت النصر صوتا معاديا كان يشبب بنساء المسلمين
ويؤلب عليهم قبائل العرب وهو كعب بن الأشرف .
- ٤ — حاول أبو سفيان مستميتا ان يغزو المسلمين . وفاء
بنفذه الا يمس رأسه ماء حتى يتم ذلك . واثناء ذلك ظهر التحالف

الباغى بين المشركين واليهود حين نزل أبو سفيان على سلام
ابن مشكم سيد بنى النضير . فأذن له . وكان في خدمته ..

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم تعقبه .. فرجع الى
مكة خائبا .

* * *

الجهة المعادية :

وقد ترتب على هذا أن حقد المشركون .. ومعهم اليهود
المهددون اجتماعيا واقتصاديا بهذا النصر ..

يضاف اليهما المنافقون بقيادة عبد الله بن أبى .. وقد تنمر
الأعراب حول المدينة . لخوفهم أن يكف الاسلام أيديهم عن النهب
والسلب .

وقد اجتمعت كلمة هذه الجبهات على التصدى للمسلمين ..
وكان الأعداد على قدر الرغبة المعادية في دحر الاسلام :

كان هناك أعداد مالى من حيث رصدت تجارة قريش بخذايرها
لتكون وقودا للمعركة .

وكان هناك أيضا أعداد معنوى عن طريق الشعراء الذين
حرضوا على النفير العام ..

وخرج المشركون بأبنائهم ونسائهم حتى لا تكون هناك فرصة
للفرار .

* * *

‘ومع ذلك فقد كان المسلمون كالعهد بهم ابطالا .. وان ماتهم
النصر احيانا .

اختيار صائف امله

شرف الجهاد :

في غزوة احد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يأخذ
هذا السيف بحقه ؟ : فقام اليه رجال فامسكه عنهم ... حتى قام
(ابو دجانة) فقال : وما حقه يا رسول الله — قال : ان تضرب به
العدو حتى ينحنى .. قال : انا آخذه بحقه يا رسول الله فأعطاه
اياه .. وقال الزبير بن العوام بعد ذلك : وجدت في نفسى حين
سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فمنعني ..
واعطاه ابا دجانة وانا ابن صفيه .. عمته .. ومن قریش ..
وقد تمت اليه فسألته اياه قبله .. وتركنى .. والله لانتظرن
ما يصنع .. فأتبعته .. فأخرج عصاة له حمراء . فعصب بها
رأسه فقالت الانصار : اخرج ابو دجانة عصاة الموت فخرج
وهو يقول :

انا الذى عاهدنى خليلى ونحسن بالسفح لى الفخيل
الا اقوم الدهر فى الكيول اضرب بسيف الله والرسول
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى ابا دجانة
يتبخر : انا لمشيئة يبغيضها الله .. الا فى هذا الوطن .

صور مشرقة للفداء :

عندما هزم المشركون في بدر على أيدي المسلمين الجاهدين..
 مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن
 أمية في رجال ممن فقدوا أبناءهم وآباءهم في بدر .. تدفعهم غرائز
 الانتقام .. في محاولة لتسليح الجيش ولم الشمل من جديد ..
 لانتقاذ الكرامة المضيعة .. ويصور القرآن الكريم هذا بقوله
 سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (١٢٧)

ولم يكن المسلمون — وفي طليعتهم الشباب — في حاجة الى
 من يثير في صدورهم جذوة الحماس الى استئناف القتال من جديد..
 فقد جاشت نفوسهم بأشواق عارمة الى ساحة النضال . واذا كان
 المشركون هناك في دوامة النقاش .. يقلبون الراى حول ضرورة
 التجمع لضرب المسلمين .. واذا تبجح اليهود فهنوا من شأن
 انتصار المسلمين في بدر .. زاعمين ان لقاءهم غدا سوف يثبت
 انهم وحدهم الناس .. الذين يجيدون صناعة الموت .. اذا كان
 الامر كذلك فقد كان المسلمون على الجانب الآخر يتسابقون الى
 الموت .. كما يتسابقون الى الحياة .

(١٢٧) سورة الانفال آية ٣٦

على صورة من الفداء تبهر التاريخ بألوانها .

شمس لا تنطفئ :

ومن أبرز هذه الصور ما تحاول تأمله اليوم .. حين يندفع
الصحابه بالمناكب حول قائدهم صلى الله عليه وسلم .. لينالوا
شرف الجهاد في سبيل الله .

وعندما يقع اختيارهم على رجل يكلفه بمهمة فدائية .. فان
فرحته بهذا الاختيار وسروره بهذا التكليف لا يعادلها سوى الاسف
الشديد في صدر زميل له .. فانه ذلك الشرف العظيم .. ان ابا
دجاجة لم يستطع ان يخفى سروره بدوره الخطير .. ففاض البشر
على جوارحه التي تختال تيهها وفخرا .. وليرى أعداءه من
نفسه قوة .

فاذا علمنا ان دوره الخطير قد يكلفه حياته .. برزت امانا روعة
الفدائية التي صاغها الايمان . والتي تزرى بشائعات اليهود حول
قوتهم المزعومة .. في محاولات يائسة لاطفاء الشمس في كبد
السماء .. هذه الشمس التي لا تنطفئ ابدا .. كيف لا .. ومن
روائها مدد من الزيت المبارك .

الشوق الى الجنة :

وحينما تقترب من الموقف نطالع من دقائقه ما يبهر الأبصار :
فالقائد هنا لا يفرض الدور على الجندي .. لكنه يفتح مجال
الاختيار امام كل جندي يثق بنفسه .

واذ يقول صلى الله عليه وسلم متسائلا : (من يأخذ هذا
السيف بحقه ؟) .

فانه يستدعى بالتساؤل مواهب الصحابة .. ويوظف عزائمهم
لتنهض للقيام بدورها مادامت تحس في نفسها قدرة عليه .

وكانت ظاهرة صحية ان تسابق الرجال استجابة لتساؤل
اثار غيهم الشوق الى الجنة .. وفي مقدماتهم ابن عمته : الزبير
ابن العوام .

ويمسك القائد سيفه عن هؤلاء جميعا ثم يؤثر به ابا دجانة
الذى سأل عن حق السيف .. حتى يراجع نفسه .. وينتحيق من
قدرته على الوفاء به .

حتى اذا احس من نفسه القدرة هب على الفور كأننا نشط
من عقال .. وتقدم ليحمله .. في صحبة أمل عظيم في الله تعالى
ان يكون عند حسن الظن به .. لا سيما بعد ان منع الجميع
منه .. دونه .

دور الجندي المسلم :

وانها لفرصة حبيبة الى نفس الفدائي ان يضرب العدو حتى
يحصد بالسيف رأسه .. فيوفيّه حساباه .

وقد كان في عرض الرسول . صلى الله عليه وسلم ما يكشف
عن دور ذلك الجندي المسلم في معركة تجيء عقب انتصار بدر ..
وما يفرضه ذلك من فدائية لا بد منها اذ يبلغ الصراع حينئذ ذروته
في معركة حياة او موت .

ولا بد اذن من الجندي الجسور .. في معركة لا مكان فيها
للخائف الحذور .

وكان هذا التسابق الواضح دليلا على ارتفاع الامة الى مستوى مسؤولياتها .. وادراكها لطبيعة المعركة فى احد .

قيم أصيلة :

وهذه القدرة العسكرية التى زكاها الايمان .. وتمهدها القائد العظيم لا تحجب ابصارنا عن التحول الاجتماعى الكبير . وعن جوهر التربية المحمدية الرامية الى تغير المفاهيم الخاطئة حتى بين يدى المعارك التى تشد اليها الانتباه .. ولا تبغى اهتماما بما سواها .

وما كان للجيش أن ينتصر أبدا ما لم يكن له سند من قيم أصيلة بقيم كيانه عليها .

هذه القيم التى-تبدو فى موقفه صلى الله عليه وسلم من ابن عمته الزبير .

فابن عمته غاضب .. لانه تجاوزه الى « الاجنبى » .

مع أنه ابن عمته .. ثم هو من قريش .. بالاضافة الى أنه قد سبقه الى طلب السيف ؟؟ .. فلماذا لم يؤثره به ؟ .

فأنظر كيف كان العرض النبوى الحكيم فرصة ذهبية .. تعلن فيه الطبائع عن نفسها .. بما تظهره من مكنون سرها .. ولولا حكمة الرسول فى الاختيار لما ظهرت هذه الاسرار .. لكنها تبدو .. ثم تلاحق بالعلاج والتقويم .

مقياس الاختيار :

ويحمل أبو دجانة سيفه .. ثم يمضى فى جو نزيه عادل ..
نمعانى القراية .. والانتماء .. والألوية .. كلها .. بمقدار
ما يبذل الانسان من نفسه .

فالمعركة أولا .. والمعركة أخيرا .

ان صلاحيتك لانجاز المهمة .. وانتهاك للمعركة .. هو
وحده مقياس الاختيار .. وهو وحده مناط الحكم لك .. او عليك .

واذا كانت هناك أسماء لامعة .. تحاول فرض نفسها ..
والاستئثار بموقف ما .. فان بين الجماهير الغفيرة جنودا بواسل ..
يراهم القائد الملهم .. واذا لم يكن الناس يعرفونهم فيكفيهم شرفا
ان الله عز وجل يعرفهم ببلائهم فى المعركة .. ويدخر لهم مقعد
صدق عند مليك مقتدر . كفاء ما يقومون به من جهاد .

فالمعركة وحدها هى التى تبرز الكفايات .. لأنها وحدها مقر
الامتحان العسير .. الذى لا يكتب المرء فيها تاريخه بقلمه ..
ولكن .. بدمه .. وعرقه .

كفايات نادرة :

وهكذا نرى فى موقفه صلى الله عليه وسلم فراسة المؤمن
الذى ينظر بنور الله تعالى .

لقد كان قلبه اكبر من ساحة القتال على اتساعها ..
واستوعب به ما حوله .. ومن حوله .. ثم وازن .. واختار .

فأتاح بالاختيار فرصة برزت فيها كفايات نادرة .. كان من الممكن ان تعيش أيامها في الظل بطاقتها المعطلة التي لم تكشفها يد صناع .
ولا شك ان ابن العوام يدرك هذه المعاني جيدا .

وما كان له ان يضيع عمره في نقد لاذع يستهدف به القائد وجنده .. أو في هجوم موصول على موازين المجتمع الذي لم يحقق رغبته .

ثقة بالنصر :

بيد انه يحاول مخلصا ان يتحسس مواطن القوة في ابي دجانة والتي رشحته لحمل السيف دونه .. ليحاول مثله الوصول ... ثم انه كجندى مثله مشغول بالنصر الذي يسره ان يحقق على يد ابي دجانه أو على يده هو .. المهم .. ان ينتصر المسلمون .. ويخذل المشركون .. وليكن ما يكون ويكشف ابن العوام احقية ابي دجانه بشرف الاختيار : لقد راعه حبه للحرية .. وتغنيه بها ... (الا أقوم الدهر في الكبول) .. في القيود .. الحرية المحكومة بشرعية الله عز وجل المستهدفة سعادة الانسان حيثما كان .

وليست هي الفوضى التي يروج لها ادعيائها .

وما أجمل أبا دجانه وهو يمشى تباها فخورا بما يملك من ثقة بالله .. وفرح بالجهاد في سبيله .. وانها لمشية تستحيل في حلق الأعداء غصة تشل من حركتهم .. وتطامن من كبريائهم .. بقدر ما تعلق قدر المسلمين .. وترفع معنوياتهم .

وهو ما تحقق فعلا عندما هزم المسلمون في احد .. لكن نفوسهم بقيت متماسكة. في أحلك الظروف يبقينها بريها .. وثقتها بنصره المبين الذى ان لم يكن اليوم مُغدا .

اليقين والزهد :

وبعد : فقد قال صلى الله عليه وسلم : (نجا اول هذه الأمة باليقين .. والزهد .. ويهلك آخرها بالبخل والامل) .

وما حدث من أبى دجانة صورة من صور هذه النجاة التى كانت سمة العصر النبوى كله والتى كانت تستمد قوتها المعنوية والمادية من رواغد اليقين .. والزهد فى الدنيا وما تحفل به من أسباب التفرق والنزاع .. الذى يمتص من جسمها العافية .

والأمة الاسلامية مطالبة اليوم ان تستلهم عزها من تاريخها المجيد .. بالتخلق بأسباب النجاة كما تحدث بها رسول الله .
(ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا) .

دور المرأة :

وكان للمرأة دورها المرموق فى غزوة احد . وربما فاقته الرجال حينئذ فى الشجاعة والمصابرة :

قالت أم سعد بنت سعد بن الربيع :

دخلت على أم عمارة فقلت :

حدثينى خبرك يوم احد . فقالت نسيبة رضى الله عنها :

خرجت أول النهار . ومعى سقاء فيه ماء . فأنتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجعلت أباشر القتال . وأذب (١٢٨) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو فى أصحابه . والريح والدولة للمسلمين .

فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجعلت أباشر القتال . وأذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف . وأرمى بالقوس . حتى خلصت الى الجراحة .

قالت أم سعد :

فرايت على عاتقها جرحا له غور أجوف . أصابها به ابن قميئة أتماه الله . لما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل يقول : دلونى على محمد . فلا نحوت ان نجا . قالت أم عمارة :

فاعترضت له لأمعه أنا ومصعب بن عبيد . وأناس ممن ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فغضبنى هذه الضربة . ولكن ضربته على ذلك ثلاث ضربات . ولكن عدو الله كان عليه درعان .

وفى شرح المواهب للزرقانى عن عمر رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — أه فى حق أم عمارة — (وما التفت يوم أحد يميننا ولا شمالا الا وأراها تتقاتل دونى) .

(١٢٨) أدايع .

لقد كان للمرأة « حضور » في غزوة احد .. ولم تكن فقط
لتكثير السواد .. وانما هي الفدائية في اعلى صورها :

فهى مدربة على استعمال مختلف الاسلحة :

تضرب بالسيف .. وترمى بالسهم .. فى حركة نشطة
سريعة . شهد بها صلى الله عليه وسلم حين وجدها تدور حوله
مستميتة .

وبلغت دقتها فى التدريب أنها كادت لتقتل ابن قبيصة لولا ان
كان عليه درعان .. الا انها مع ذلك فاقتته اذ ردت ضربته بثلاث
ضربات ! .

وبقى جرحها الفائر دليل شرفها وبطولتها .. وغوى ذلك
بقيت شهادة الرسول لها قلادة تتوج كفاحها المبارك .

هذا الكفاح الذى لم يكن صدفة . وانما كان قاسما مشتركا .
وظاهرة من ظواهر الحروب الاسلامية . ومنها احد :

فهذه امرأة « من بنى دينار » فقدت زوجها . واخاها . واباها
فى احد . فلما نعوأ اليها قالت : فما فعل رسول الله صلى الله
عليه وسلم . قالوا : خيرا يا أم فلان . هو بحمد الله كما تحبين .

قالت :

أرونيه حتى أنظر اليه . فأشير لها اليه . حتى اذا راته

قالت :

كل مصيبة بعدك . اى هينة (١٢٩) .

وانت خير بامراة تفقد هؤلاء الاحبة .. لتواجه الحياة من بعدهم وحيدة .. ومع ذلك فلم يشغل بالها الا رسول الله صلى الله عليه وسلم . من حيث كانت الدعوة في غيابه على خطر عظيم . فاذا مات الاحبة جميعا .. فقد بقى احبهم جميعا .. وظل املها قويا . في نصر قريب للحق الذى ملأ حياتها .. ويوم خرجت مع اعزائها .. فانما لتدعيم هذا الحق ورفع رايته .

فليذهب الاحباء .. وليبق الحق مرفوع اللواء .

* * *

الدور الانسانى

للمرأة فى احد :

وكان للمرأة « حضور » ايضا فى احد على المستوى الانسانى :

كانت عائشة . وام سليم رضى الله عنهما تنقلان القرب على متونهما تفرغانها فى افواه القوم .

ثم ترجعان فتملأنها . ثم تجيئان فتفرغانها فى افواه القوم (١٣٠) .

وكانت « ام سليط » تزفر لهما القرب .

* * *

(١٢٩) سيرة ابن هشام ٦٩/٢
(١٣٠) راجع صحيح البخارى .

وهذه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زميلاتها
على الجبهة العسكرية :

ولقد ساعدت زوجها عليا رضى الله عنه في غسل دمه
الجارى على وجهه .

فلما رأت فاطمة رضى الله عنها ان الماء لا يوقف الدم السلل
أخذت قطعة من حصير . فأحرقتها . والصقتها . فاستمسك
الدم .. واضعة بذلك أصلا من أصول التمريض لمن شاء أن
يبحث ويستفيد .

* * *

الصبر الجميل :

وبقيت المرأة المسلمة عاتذة بصبرها في أعقاب احد .. فلم
تهزها الفجعة هزا يفقدها صوابها :

أقبلت صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لتنظر الى
حمزة أخيها الشهيد .. فقال صلى الله عليه وسلم لأبنها
« الزبير بن العوام » القها فارجعها .. اشفاقا عليها .

فقال لها : يا أمه .. ان رسول الله يأمر أن ترجعى .

قالت : ولم ؟ وقد بلغنى أن قد مثل بأخى .

وذلك في الله .. لأحتسبن . ولأصبرن ان شاء الله .

واتته . فنظرت اليه . وصلت عليه . واسترجعت
واستغفرت له .

نساؤنا ونساؤهم :

وبازاء هذا المستوى العالى للنساء المؤمنات فى الشجاعة ..
والانسانية والصبر .. كانت نساء المشركين على العكس :

جعلت هند بنت عتبها وزميلاتها المشركات يمثلن بالقتلى من
المسلمين .

يجدمن الآذان والانف .

وبلغ التشفى مداه عندما بقرت بطن حمزة الشهيد ومضغتھا ..
ثم لفظتها .. واذا تعبر المؤمنات عن انسانية الاسلام .. دين
المستقبل .. فقد عبرت الكافرات عن ضسيق الباطل وحمقه ..
الذاهبين به غدا أو بعد غد .. ليخلو الجو للدين العالى الآخذ
بيد الانسان الى التى هى اقوم .

دور الغلمان :

ولم يكن الغلمان الصغار بأقل حماسا من أبائهم وأمهاتهم :

وقد بلغ تنافسهم فى الجهاد مع رسول الله شأوا بعيدا :

وقد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجموعة منهم
لصغر سنهم وقلة خبرتهم .

وقد فرضت مصلحة الدعوة ذلك مرارا من الاضرار الناشئة
عن قلة الخبرة .

ومن الذين ردهم : « سمرة بن جندب » . و « رافع بن خديج »
وهما ابنا خمس عشرة سنة .

ومن حسن حظ « رافع » ان كان ابوه معه لحظة التاهب
للمعركة فشفع لابنه قائلا : يا رسول الله : ان ابني « رافع » رام .
فأجازه صلى الله عليه وسلم .

ووجد زميله « سمرة » في قلبه من الشجاعة ما يدافع به عن
نفسه فقال لرسول الله : لقد أجزت رافعا . ورددتني . ولو
صارعته لصرعته ! .

ولما تصارعا . غلب سمرة رافعا . . فأجازه صلى الله
عليه وسلم .

ونحن امام اثسبال في سن الخامسة عشرة . يتدافعون
بالمناكب . وسط الرجال . . تحدوهم رغبة مشتتة ان يكونوا من
المجاهدين .

ولم تكن مجرد امان تجيش بها انفسهم . وانما كان للأمانى
سندها من هذا الطموح الجاد .

« فرافع بن خديج » ابن الخمسة عشر ربيعا ماهر
في الرمي .

و « سمرة بن جندب » مصارع حر . . يملك جسما رياضيا
سلميا .

وغوق ذلك يملك قدرا من الشجاعة الادبية حطم به حاجز
الحياء فدافع عن نفسه وكسب الرهان ! .

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون :

وهكذا يتنافس الشباب :

لقد حاولت احصاء الساعات التي ضاعت من عمر الشباب المتحمس في معركة الانتخابات الأخيرة .

وادركت ان مئات الساعات راحت هباء في محاولة الحصول على مقعد من مقاعد مجلس الشعب .

مئات الساعات ضاعت من آلاف الشباب في سبيل هذه الغاية الدنيوية القريبة .. بينما كان الشباب في مثل سنهم يتنافسون في الجنة ونعيمها .

لا يتنافسون فيها بالكلام والاماني العذاب .

ولكن بالتدريب على حمل السلاح في بواكير حياتهم .

وكان من لطف الله بالامة ان يبدأ انتشار الاسلام بهؤلاء من امثال « رافع » .. و « سمرة » .

والا فلو قدر للاسلام ان ينتشر على ايدى صناع الكلام .. ومدبري التجمعات والشعارات .. لما وصل الينا الاسلام اليوم!!

ومع ذلك فما زالت الامل حية في قلوبنا ان يصحو شبابنا يوما ليروا دورهم الحقيقي في مجالات الخدمة العامة . ترقية للحياة . واسعاذا للأحياء .. واعزازا للامة .

الآثار الحميدة لغزوة أحد :

قال ابن حجر (١٣١) :

(قال العلماء : وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة منها :

تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية . وشؤم ارتكاب النهي .
لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم ألا يبرحوا منه .

ومنها : أن عادة الرسل أن تبتلى . وتكون لها العاقبة .
والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائما دخل في المؤمنين من ليس منهم . ولم يتميز الصادق من غيره .

ولو انكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة .
فماقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب .
وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيا عن المسلمين . فلما جرت هذه القصة وأظهر أهل النفاق ما أظهره من الفعل والقول عاد التلويح نصريحا . وعرف المسلمون أن لهم عدوا في دورهم . فاستعدوا لهم . وتحرزوا منهم .

ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضما للنفس . وكسرا لشماختها .

(١٣١) متح الباری ٣٤٧/٧ (يراجع زاد المعاد ٩٩/٢ : ١٠٨)

- فلما ابتلى المؤمنون صبروا . وجزع المنافقون .
- ومنها : ان الله هيا لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته .
لا تبلغها اعمالهم .
- فقضى لهم اسباب البلاء والحن ليصلوا اليها .
- ومنها : ان الشهادة من اعلى مراتب الاولياء فساقها اليهم .
- ومنها : انه اراد اهلاك أعدائه . فقضى لهم الاسباب التى
يستوجبون بها ذلك : من كفرهم . وبغيهم . وطغيانهم فى اذى
اوليائه .
- فمحس بذلك ذنوب المؤمنين . ومحق بذلك الكافرين) .

خواطر حول فستح مكة

قصه حاطب بن أبى بلتعة
ونفى تهمته التجسس عنه

تحت عنوان « موقف الاسلام من التجسس » تحدث الأستاذ / محمود بيومي عن الجاسوسية وخطر الجاسوس الناشئ عن دوافعه المدمرة من الحقد والخيانة . والتي تسول له التورط في عمل قد يكلفه حياته .. راجعا بذلك كله الى سوء تربيته . وسوء طويته معا .

ثم انتقل مباشرة الى الحديث عن أول واقعة تجسس في الاسلام متمثلة فيما كان من الصحابي الجليل « حاطب بن أبي بلتعة » في فتح مكة . والذي أثبت عليه تهمة التجسس .

والحديث على هذا النحو يزوج بهذا الصحابي الجليل الى ساحة التجسس . وما تثيره من روائح الغدر والعمالة والنفاق . كما وضع الكاتب في مقدمته .. مع أن الرسول صلى الله عليه

وسلم طوى هذه الصفحة من تاريخ « حاطب » بعد ما تبين الحق .
ووضح السبيل . عائدا به رضى الله عنه الى الصف الاسلامى
كما كان .. بل لعله بالتوبة عاد احسن مما كان .

ولو ان الكاتب الفاضل تجاوز عن مقدمته فلم يفكرها قاصرا
حديثه على تبين الحكم الشرعى فى الموضوع .. لكان الامر
مقبولا .

اما ان يتحدث عن الغدر .. والدناءة .. ثم يضرب الصحابى
مثلا .. فهذا ما يفتح النار على قمم فى الايمان قل ان وجود بمثلها
الزمان .. وهو ما يفرض علينا فى نفس الوقت تجليه القضية
بما يحق الحق . ويقف بهذا الصحابى الجليل حيث وضعه الرسول
صلى الله عليه وسلم نجما .. يهدى الحائرين .

فمن هو حاطب بن ابي بلتعة ؟

وما هى مظاهر الحكمة فى حياته ؟

وما الذى فعله يوم الفتح ؟ واثار الزوبعة حوله ؟

وهل ينطبق عليه تعريف التجسس ؟

ثم كيف برئت ساحته .. وبقي على قمته ؟

وما هو الدرس المستفاد ؟

بطاقة معرفة

لم يكن « حاطب بن أبى بلتعة » من أنفسهم « بضم الفاء ..
كما جاء فى الحديث الشريف . أى لم يكن ينتسب الى قريش نسبا
وولادة . وانما انتسب اليهم حلفا وولاء . واذن .. فقد كان —
من الناحية الاجتماعية — خفيف الوزن !

وبالتالى .. فان اعلانه الاسلام شهادة له بالفضل .

وكيف ؟

ان رجلا كعمر .. او خالد .. رضى الله عنهما .. عندهما
يعلن اسلامه فان له عشيرة تحميه . كما وأنه فى ذاته قوة رادعة
لن يتصدى له .

اما حاطب بن أبى بلتعة .. فان اعلانه الاسلام بينما هو
لا ينتمى الى القبيلة .. انتهاء عضويا .. ومركزه الاجتماعى
لا يسنده — شهادة على صدقه وأصالته . وأنه بتكوينه غير قابل
للتناق ! .

والا .. فلو كان قابلا له .. لمارسه يوم أن كان بين قريش ..
القوية ولم يكن من ورائه خط دفاع يحميه .. بيد أنه لم يفعل .

شهادة دولية

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم « حاطبا » الى
« المقوقس » عظيم القبط فى مصر . يدموه الى الاسلام .

وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلف لهذه
المعظيمة الا كنفها العظيم .. حاطب بن أبى بلتعة .

والذى أكد نجاحه فى مهمته توفيق الرسول فى اختياره لدوره
المناسب .. سفيرا لوطنه الى ملك طبقت شهرته الآفاق .. فكان
عند حسن الظن به فى عرضه قضيته ثم فى حوار الحكيم مع
المقوقس :

قال حاطب للمقوقس :

« ان هذا النبى . دعا الناس . فكان اشد هم عليه قريش .
واعداهم له اليهود . واقربهم منه النصارى .
ولعمري . ما بشاره موسى بعبسى الا كبشاره عيسى بمحمد .
وما دعاؤنا اياك الى القرآن . الا كدعائك اهل التوراة الى
الانجيل . وكل نبى أدرك قوما فهم امته . فحق عليهم أن يطيعوه .
وانت ممن أدرك هذا النبى . ولسنا ننهاك عن دين المسيح .
ولكننا نأمرك به » (١٣٢) .

ولم يكن حاطب مجرد رسول يحمل رسالة خطية او شفوية ..
ولكنه مستعد لكل ما تثيره الرسالة من تساؤلات يجيب عنها ..
مؤكدًا بحكمته صحة اختياره : لما قال المقوقس لحاطب :

« ما منعه ان كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من

بلده ؟

فقال حاطب :

ما منع عيسى — وقد أخذه قومه ليقتلوه — أن يدعو الله
عليهم فيهلكهم .

فقال المقوقس :

احسنت .. انت حكيم . جاء من عند حكيم « .

ثم حمله بألوان من الهدايا الرامزة الى تقدير الرسالة
والرسول .

وهكذا نجحت « الديبلوماسية العربية الاسلامية في كسب
ثقة المقوقس بثقله الدولي . » . والتي انتزعت شهادته بالحكمة
انتزاعا .

وكان نجاح المهمة مردودا الى السفير الباقعة (١٣٣) . حاطب
ابن أبى بلتعة !

* * *

وتقديرًا من أبى بكر رضى الله عنه لحاطب نراه يبعثه أيضا
الى المقوقس . فصالحهم . ولم يزالوا كذلك حتى دخلها عمرو بن
العاص (١٣٤) .

* * *

(١٣٣) الباقعة : الداهية .
(١٣٤) راجع فتح البارى مجلد ٢٧٥/٩

ماذا فعل حاطب ؟

ولنقرأ كتاب حاطب رضى الله عنه الى قريش .. لنرى على
مرآته نوايا الرجل :

(اما بعد :

فيامعشر قريش : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
جاءكم بجيش كالليل . يسير كالسيل .

فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله . وأنجز له وعده .

فانظروا لانفسكم . والسلام . حكاة السهيلي(١٣٥)) .

تحليل الخطاب :

انه بسطوره القليلة نذير مدمم يستجيش في قلوب قريش
مشاعر الخوف لتراجع نفسها .

وان لم تفعل .. فماذا هي غائلة امام جيش يحجب الأفق ؟
وقائد لو جاءهم وحده لهزمهم .. لأن معه القوة التي
لا تغلب .. والنصر مضمون له سلفا .

والنتيجة ؟

ان يتفكروا .. ويتشاوروا .. ثم يرفعوا الراية البيضاء ..
مستسلمين .. ثم يأتوه مسلمين !

فأين هي رائحة الغدر هنا ؟

(١٣٥) نتح البارى جلد ٥٢١/٧

وأيـن معنى الجاسوسية فى خطابه ؟

ان خطابه لشاهد بايمانه بالله وبرسوله .. وسنته فى نصرة المؤمنين .. ثم هو شاهد ايضا ببراعته فى ضوء اللغة التى تعرف الجاسوس فتقول :

(جسـه بيده جـسا . من باب قتل . واجتـسه . ليتعرفه . وجس الاخبار . وتجسسها : تتبعها .

ومنه الجاسوس . لانه يتبع الاخبار . ويفحص عن مواطن الامور) (١٣٦) وقد فرق العلماء بين صنفين :

الجاسوس وهو (صاحب سر الشر) .

والناموس وهو (صاحب سر الخير) .

ولقد كان رضى الله عنه « ناهوسا » ولم يكن جاسوسا !!

وسطور كتابه كما هى ناطقة بايمانه .. فانها ناطقة بثمره

هذا الايمان وهى : النصيحة لله .. ولا ظل هناك لنفاق ..

ولا تتبع .. وتسقط للأخبار .. فما هكذا يفعل الاخبار !

استفسار وليست محاكمة :

بعد أن كشف الوحي الأعلى أمر حاطب .. لم تكن محاكمة

بقدر ما كانت استفسارا يوضح ما حدث .. وان شئت قلت بلغة

العصر : « طلب احاطة » .. وليس « استجوابا » ؟!

فما شك الرسول لحظة فى ايمان رجل شهد بدرا !

(١٣٦) المصباح المنير .

حاطب يشرح أبعاد الموقف :

بدأ رضى الله عنه أولا يطمئن الرسول والذين آمنوا معه على
انه ما زال على العهد مؤمنا :
(من حديث جابر رضى الله عنه :

قال : اما ائنى . لم افعله غشا لرسول الله صلى الله عليه
وسلم . ولا نفاقا . قد علمت ان الله مظهر رسوله . ومتم له
امره) (١٣٧) (لم افعله ارتدادا عن دينى . ولا رضا بالكفر
بعد الاسلام (١٣٨)) .

لكن ما الذى حمله على ان يفعل ما فعل .. مع منافاته
لعقيدته التى مازالت كما هى ؟
يجيب رضى الله عنه فيقول :
(يا رسول الله : لا تعجل على .

انى كنت امرءا ملصقا فى قريش — يقول كنت حليفا — ولم
اكن من انفسها — بضم الفاء .
وكان من معك من المهاجرين من بها قرابات يحمون اهلهم
واموالهم . فاحببت اذا غاتنى ذلك من النسب فيهم ان اتخذ عندهم
يدا يحمون بها قرابتي (١٣٩)) .

(١٣٧) حياة الصحابة ج ٢ / ٤١٠
(١٣٨) راجع فتح البارى آخر مجلد ٧
(١٣٩) الموضع السابق .

ولك الله يا حاطب !

ما كان أغناك عن هذا التمزق .. وهذا العذاب .. وهذا
الحر .. لو كنت تبحث عن الدنيا !

وما كان أسهل عليه لو أنه فضل البقاء مع أهله وماله
في مكة .

لكن العقيدة التي آثرها .. تحمله اليوم فوق ما يحمل
البشر .

وحتى في أحلك ظروفه لا يتهاون فيها .. انه فقط يقدم لقريش
جميلا « سوريا » لا ثمرة له ولا جدوى منه بعد أن تأكد من نصر
رسول الله صلى الله عليه وسلم .. والذي لن تقدمه الرسالة
ولن تؤخره .

انه واقع تحت ضغوط خطيرة من غرائز تشده اى أهله ..
بما فيهم والدته العجوز .. ولا بأس أن يقدم الى قريش « شيكا
بلا رصيد » يحمى به آله .. وماله !

اقتناع النبي صلى الله عليه وسلم :

وقد اقتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قاله .
وخاطب أصحابه قائلا :

(أما انه قد صدكم) .

وتحت وطأة الاحساس بما كان يترتب على خطاب حاطب ..
تستمر الحملة الضارية عليه بقيادة عمر الذى يطالب الرسول
برأسه ؟ !

فلما ذكره صلى الله عليه وسلم بأنه « بدرى » .. داخل
فى رحمة الله تعالى منذ شكل بالنصر المبين حجر الزاوية فى صرح
الاسلام .. لما ذكره .. بكى عمر .

عمر الذى انكر ظاهر فعل حاطب لمناقضته عقيدته ..
ولمخالفة توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم فى التعمية على
قريش .. انه يبكى الآن .. ويفسل بدموعه ثورته على أخيه
حاطب .. الذى تبدو صورته الآن أنقى .. وأصفى .

لقد جاء فى الاثر :

تجاوزوا عن ذنب السخى .

فان الله آخذ بيده كلما عثر .

وفاتح عليه كلما افتقر .

ونحن مطالبون بأن نسقط من ذاكرتنا كبوة الجواد . الذى
شهد بدرا .. وكان بشهوده على قمة السخاء بالنفس .. والجود
بالنفس أقصى غاية الجود .

معنى شهادة الرسول :

ولهذا التسامح النبوى مغزاه :

لقد حكم صلى الله عليه وسلم فى الاطار القرآنى . . وفى ضوء الآيات القرآنية الحاكمة باذهاب الحسنات للسيئات اذهابا لا يبقى للخطيئة اثرا .

قال ابن قيم الجوزية فى زاد المعاد (١٤٠) فى معرض بيان الأحكام المأخوذة من فتح مكة :

(وفيها ان الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكرر بالحسنة الكبيرة الماحية كما وقع الجس من حاطب مكفرا بشهوده بدرا .
فان ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة .
وتضمنه من :

محبة الله لها ورضاه بها وفرحه بها ومباهاته للملائكة بفاعلها اعظم مما اشتملت عليه سيئة الجس من المفسدة . وتضمنته من بغض الله لها .

فقلب الأقوى على الأضعف فأزاله وأبطل مقتضاه .
وهذه حكمة الله فى الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات . . الموجبين لصحة القلب ومرضه .
وهو نظير حكمته تعالى فى الصحة والمرض اللاحقين للبدن .

فان الاقوى متهما بقهر المغلوب ويصير الحكم له حتى يذهب
اثر الاضعف .

- فهذه حكمته فى خلقه وقضائه . وتلك حكمته فى شرعه وامره .
- وهذا كما انه ثابت فى محو السيئات بالحسنات لقوله تعالى .

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ^{١١٤١}

وقوله تعالى :

﴿ إِنْ يَحْتَبِرُوا كَيْفَ مَا تَبَيَّنَ عَنْهُمْ عَنْكَ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ^{١١٤٢}

- وقوله صلى الله عليه وسلم واتبع السيئة الحسنة تبيحها .
- فهو ثابت فى عكسه لقوله تعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ ^{١١٤٣}

وقوله .

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ————— ○

لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ

(١٤١) سورة النساء آية ١١٤

(١٤٢) سورة النساء آية ٣١

(١٤٣) سورة البقرة آية ٢٦٤

بِالْقَوْلِ يَكْهَرُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ
لَا تَسْعَوْنَ ﴿١٤٤﴾

براءة

وبهذا البيان تثبت براءة حاطب رضى الله عنه .. هذا البيان
المشتق من بيان القرآن النازل في هذه الواقعة .. وفي صدر سورة
المتحنة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ (١٤٥)

فلم يزل يحتفظ لحاطب بوصف الايمان .. مع ما فعله من افشاء
السر .. ثم لا يتجه اليه الخطاب منفردا وانما تصبح القضية عامة
تهم المسلمين جميعا ليكونوا على حذر من التورط في امر كهذا مادامت
الطبيعة البشرية واحدة ومعرضة للخطا .

وبعد فان مقام الصحابة فوق الشك والتهمة . ومنزلتهم الكبرى
لا تطاولها منزلة . ولو انفق غنى ما يساوى ميزانية دولة كبرى
ما بلغ بالانفاق مواطىء اقدامهم .
قال صلى الله عليه وسلم :

(١٤٤) سورة الحجرات آية ٢

(١٤٥) سورة المتحنة آية ١

(لا تسبوا أصحابي فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل
أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه(١٤٦)) .

ولا يشفع لنا أنهم بشر يخطئون .. فمزال حقهم في التقدير
والإجلال محفوظا .

(عن ابن عباس قال :

لا تسبوا أصحاب محمد . فإن الله عز وجل قد أمر بالاستغفار
لهم . وهو يعلم أنهم سيقتتلون ويحدثون) المرجع السابق ٩١٠ .
وإذا كانت قوانين الأمم اليوم تسقط السابقة من سجل
المخطيء بعد سنوات أفلا يجمل بنا أن نسقط خطأ حدث منذ أربعة
عشر قرناً من الزمان !!؟

لقد حمل حاطب بن أبى بلتعة مع أخوانه المجاهدين أرواحهم
على أكتفهم .

وبهذه العزيمة الرشيدة .. وضع صرح الاسلام حجر الزاوية
الذى سمى به البناء وارتفع .

واذ ترصد الأمم بلايين الجنيهاً تغنيا برصيدا من الرجال .

فحق هؤلاء علينا أن نقيم لهم في قلوبنا ذكراً .. نستبقيهم به
في وعينا منارات .. تهدينا سواء السبيل .. والله المستعان .

(١٤٦) فضائل الصحابة ج ٢/٩٠٩

الدعوة بين الملحة .. والمرحمة :

عندما دخل صلى الله عليه وسلم مكة فاتحا .. ودانت له
الرقاب التي طالما عادته . بدأت مهمته الحقيقية بفتح القلوب لترى
النور .. فتصحو :

وذلك عن طريق الرحمة في أعلى مراتبها : العفو عند المقدرة .
دخل عليه رجل يرجف فؤاده . فقال له صلى الله عليه وسلم :
(هون على نفسك . انما انا ابن امرأة كانت تأكل القديد)
« اللحم المجفف » فأنظر ماذا ترى :

قائد الجيش المظفر يمك بزمam الموقف . ومن ورائه عشرة
آلاف مقاتل . والاحساس بالسرور يتنامى بالعودة الى أحب بلاد
الله .. الى الله .

وكل الدلائل تشير الى أن تصفية الحساب القديم توشك
أن تبدأ .. جزاء عدلا .

وأفضل درجات التفاؤل لا تتوقع أبدا الا .. القصاص .

ولكنه صلى الله عليه وسلم يرتفع فوق مستوى هذه
الاعتبارات كلها .

وينسى حظ نفسه . ليتصرف في حدود مصلحة الدعوة ..
فلا غرابة أن يتخذ العفو القادر ركوبا الى فتح قلب الرجل ..
ليختار في ظل هذا العفو ما يحلو له .. والموقف مع ذلك درس
من دروس التربية النبوية :

فالرسول القائد يخفف من هلع الرجل اولا ..

وفي هذا الجو الذي تبرز فيه المباهاة لتقول كلمتها في غيبة
الايمان .. يؤثر صلى الله عليه وسلم ذكر امه :

(انا ابن امرأة) .

ومع ان العرب تتأبى على ذكر الام في المخاطبات ائفة ..
فانه عليه الصلاة والسلام يؤكد للرجل : أن الذي يكلمك ابن
امرأة .. مجرد امرأة .. كسائر الامهات .. وكألك انت بالذات ..
فهو شريكك في المنشأ ولا يملك الا أن يعاملك على هذا الاساس .
ثم هي امرأة :

لم تتلفع بفضل مئزرها .. ولم تسق في العلب .. كما تفعل
النساء المترفات .. ولكن كان غذاؤها اللحم المجفف في الشمس ..
هذا الطعام الشعبي المتداول لقد كانت بسيطة بساطة هذه
الصحراء .. نقية نقاء هذه السماء وانت خبير بأن لحظة الانتصار
في حياة القواد تنسيهم ذلك الماضي المتكشف .. وانهم ليتحدثون
وكانهم ولدوا وفي أفواههم ملاعق الذهب .

وقد يتصورون أن الحديث عن قسوة الماضي مما يחדش
بطولتهم .. ويهون من شأنهم .

ولكنه صلى الله عليه وسلم يذكر الحقيقة بكل تفاصيلها .
يذكرها بكل صدق دون خوف على شخصيته أن تمس لانه
ابن امرأة .. فقيرة .. لانه كان يرتكز في وجوده على ما هو أسمى

من ذلك كله .. انه الايمان بالله عز وجل .. ومتى توهمت حقيقة
الايمان بالله تعالى في قلب المؤمن .. فلا يضره ما عداها مما
يتنافس فيه المتنافسون .

واذا خاف أصحاب الشخصيات الزجاجة على انفسهم من
حصاة يرميها غلام .. فينكسرون .. فان المؤمن صخرة صلبة ..
أو بحر عريض .. عريض .

لا يضر البحر امسى زاخرا ان رمى فيه غلام بحجر
انه الفرق الهائل كما قيل بحق بين الزعامة النبوية التي تهب
نفسها للمثل الأعلى . والزعامة الدنيوية التي تخضع الحياة
لحاجات نفسها .

الملحمة .. والمرحلة :

وفي لحظة الانتصار اشرف القائد الأعلى بنفسه ليطمئن على
سلامة الوجهة .. وليضمن بقاء العفو والرحمة شعاعا عمليا ..
وفي موقفه من سعد بن عباد - في فتح مكة - شاهد على ما نقول:
مر سعد بن عباد بأبى سفيان . فقال له :

اليوم يوم الملحمة . اليوم تستحل الحرمة . اليوم اذل الله
قريشا .

ولقد خاف بعض الصحابة من رد الفعل الناشئ عن هذا
الشعار العصبى لا سيما ولأبى سفيان كلمة في قومه يمكن أن
تعرق المسار . ولو قليلا .

ولقد كفاهم أبو سفيان المهمة حين اشتكى لرسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال :

يا رسول الله . ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وما قال ؟
قال : كذا وكذا .

فاستنكر صلى الله عليه وسلم مقالة سعد وقال : بل
اليوم يوم الرحمة .

اليوم يعز الله قريشا .

ويعظم الله الكعبة .

تحليل الموقف :

لقد جاءت دولة الاسلام اليوم .. بل عادت الى مكة أم
القرى .. ولكن على أى ركوب تجيء دولة الاسلام ؟

لقد أرادها سعد بن عبادة نهرا من الدم تفجره سيوف
المسلمين تفجيرا .. ويترك الموقف لمشاعر الانتقام تقول كلمتها في
أناس يجب أن يذلوا جزاء ما قدمت أيديهم .. وهكذا تقول
شريعة العدل .

وفي معمرة النضال .. يشكو أبو سفيان .. وتصل شكواه
الى القائد الأعلى الذى أصدر قراره بعزل سعد بن عبادة فوراً !
وكان القرار فى حد ذاته نصرا أعظم مما أرادته سعد بن
عبادة .

ان قتل الرجال لا يساوى شيئا ازاء اكتساب قلب رجل ..
يقىء بالعنف الى الاسلام .. ويخرج الله من صلبه من يحب الله
ورسوله .

ثم :

هل مهمة الجندي المسلم مجرد هزيمة العدو .. أم هي
بالدرجة الاولى هدايته ليزداد الصف الاسلامى به قوة ؟

* * *

حكمة الرسول :

لكن قراره صلى الله عليه وسلم بأخذ الراية من سعد فيه
من حكمته عليه السلام نفائس :

لقد كان هناك اعتباران لابد من اخذ القرار على أساسهما :

١ — أبو سفيان .. يعيش أسوأ لحظات حياته .. فقلبه
مجروح .. ولابد من جبر خاطره .

٢ — فى نفس الوقت .. فان لسعد بن عباد ماضيا جليلا
فى خدمة الدعوة ينبغى الا يمس !

واذن .. فليجبر خاطر أبى سفيان .. سياسة .. ولكن
لا على حساب سعد بن عباد .

وهنا امر الرسول صلى الله عليه وسلم أن تعطى الراية
التي كان يحملها سعد الى ابنه « قيس » .

أى أنها لم تخرج من بيت سعد .. بل أنها فى يد أحب
الناس اليه .

وفي نفس الوقت .. فقد هدأت نفس ابى سفيان لما أخذت
الرأية من سعد هذا الذى تجههم له .. وتوعده .

ولم يكتف صلى الله عليه وسلم بهذا لكنه اراد « تقنين »
هذا الموقف بشعار جديد ينبغى رفعه على أنقاض الشعار الذى
رفعه سعد بن عبادة .. تبصرة وذكرى :

ان دولة الاسلام تعود .. بالرحمة .. لا باللمحة !
والطريق مفتوح امام قريش لتأخذ سبيلها الى عزها ..
بالاسلام .. وهكذا كل المعاندين الى الأبد .
وسوف تظل الدعوة ماضية فى سبيلها .. ناشرة ظلها ..
على جناحين من الرحمة .. والعفو .
وفي غيبة مشاعر الانتقام .. لتحل محلها نوايا السلام .
هذا السلام الذى اتاح للدعوة ان تخط مجراها فى دنيا الناس
فى صلح الحديبية فحققت ما لم تحققه المعارك الساخنة .

ان جزءا من حماسنا — المتحدر اليانا من حماس « سعد »
رضى الله عنه — يتبغى أن يتجه طوفانه الى : الضعيف ليقوى ..
والمرضى ليشفى .. والمظلوم لينهض .. وآلات المصانع لتدور ..
والأرض البكر لتزهر وتثمر .. وعلى اكتاف هؤلاء الأقوياء ..
تقوم دولة الاسلام .. التى قد تتأخر عودتها كثيرا أو قليلا ..
لكنها آتية على أى حال رحمة مهداة . ونعمة مسداة .

شبابٌ على طريق الإسلام يحدد لهم الموت
ولكنهم يزرعون الحياة

من حق الشباب اليوم أن يمدوا أيديهم الى ما في الحياة من
صور المتسع الحسن .. ولا تثريب عليهم اذا هم تقلبوا في البلاد
سياحة تجدد نشاطهم .. تجديدا يعينهم على اداء دورهم في
دنياهم .

فالطبيعة من حولنا مأدبة حافلة بأطياب الطعام .. ولا بأس
على العين أن ترى .. ولا على القلب أن يخفق .. ولا على الأعصاب
أن تحس .. في غير معصية الله تعالى .. ذلك شيء مهم في حياة
الشباب .. وأهم منه أن تعود بهم ذكراتهم الى تاريخهم المجيد
عودة يعمق بها اعتزازهم بأنفسهم .. وتفتح أبصارهم على ما في
تراثهم من مواقف مشرفة .. قام بها شباب أمثالهم .. فكانوا شاهد
صدق على ما في شبابنا من طاقة .. تمكنه من الصعود الى أعلى ..
فلا تتف به همته عند الخضرة .. والماء .. لكنها تجعل منه سلاحا
من أسلحة القدر .. يعلم الناس فن الحياة .

وفيها رواه الامام أحمد رضى الله عنه واحد من هذه المواقف:

كان شباب من الأنصار سبعين رجلا .. يقال لهم القراء .
 قال : كانوا يكونون في المسجد فاذا امسوا انتحوا ناحية من المدينة ..
 فيتدارسون ويصلون . يحسب أهلهم أنهم في المسجد .. ويحسب
 أهل المسجد أنهم في أهلهم .. حتى اذا كانوا في وجه الصبح ..
 استعذبوا من المساء .. واحتطبوا من الحطب .. فجاءوا به
 فأسندوه الى حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..
 فبعثهم النبي صلى الله عليه وسلم جميعا فأصيبوا يوم بئر معونة .
 فدعا النبي صلى الله عليه وسلم على قتلتهم خمسة عشر
 يوما في صلاة الغداة) .

فأنظر .. ماذا ترى ؟

انهم نموذج من شباب هذه الامة .. قد استعلى بإيمانه
 فوق لهو الحياة ولعبها .. فكان سهر الليالي في مدارس العلم ..
 والتعلق بالمسجد ذكرا وصلاة متعته وزاده .. ولئن كانت الخضرة
 والماء بعض مآربه .. فانه ولكي تبقى الحياة مخضرة .. لابد من
 تضحية ودماء تجري .. لتظل الأرض مخضرة .. تثبت من كل
 زوج بهيج .

لابد من معاني الكفاح .. والايثار .. والجد والوحدة ..
 حتى اذا دعا الى البذل داع .. كان هنالك من هذه المعاني
 رصيد تنطلق به القافلة الى امام .. والا .. فلو جلس كل انسان
 مستغرقا في متعته .. لما وجدت الدنيا يدا تستنبت الخضرة ..
 ولا آلة تجري الماء .. فماذا في المشهد من معان تستلقت
 النظر ؟

كانوا سبعين شابا .. اعنى فى مرحلة الاعتزاز بالرأى ..
وتحكم المزاج .. لكنهم كانوا (رجالا) .. توحدت كلمتهم ..
حدا منهج معين .. وطريق مرسوم .. بلا خوف .. ان مبادئ
الإنسان واضحة فى أذهانهم وضوحا يؤدى بهم الى الالتفاف حولها ..
والعمل من أجلها .. نظرية سليمة .. قابلة للتطبيق فى دنيا
الواقع .. على نحو تنحول به الفكرة الى حياة نابضة بالحركة ..
فعلام الاختلاف اذن .. وقد ذهبت دواعيه ؟

ليس هنا مزاج شخصى يتحكم .. بل الكل جماعة واحدة ..
الى هدف واحد .. ولعل وحدة الكلمة .. اقرب الى تحرير النفس
مما لو كان هناك فكر سديد لا يجد الجماعة التى تتحمل مسئوليته ..
أسوة بهؤلاء السبعين من الرجال .. لقد انتصرت اسرائيل
علينا .. مع فساد الأفكار التى تقوم عليها .. وذلك باتفاق كلمتهم
علينا .. وربما خذل المسلمون انفسهم حين لم يرتفعوا الى
مستوى ايمانهم بالله عز وجل .

اما هؤلاء الشباب .. فكانوا بمسلكهم الرائع صورة عملية
تتجسد بها المفاهيم .. وتستقر بها المبادئ .
فكانوا فى السلم طلاب علم يقترب به الانسان من خالقه
سبحانه .

وفى الحرب .. صاروا جندا يدوخ الله بهم الباطل .. وعلى
اساس من العلم والعمل قامت حياتهم :
علم يتدارسونه فيربطهم بالحياة .. وتصح به صلتهم بالله
تعالى .. وبالمجتمع الذى يعيشون فيه .. فيردون اليه الجميل

فى صور ذلك الماء العذب .. وهذا الحطب الجزل .. يقدمونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اى ان تحصيل العلم لم يلههم عن أداء واجبهم .. هكذا تطوعا .. ولو كان ذلك الواجب قربة ماء يحملونها .. او حزمة حطب يجلبونها .

ولم تكن منهم انفة من عمل كهذا .. وربما تعافه بعض النفوس المترفة .

وانها لزكاة ترمز (١٤٧) الى شرف العمل مهما كان نوعه .. وهو نموذج مفقود فى صفوف شبابنا الذين يجيدون فقط فن النقد والتجريح .. بينما هم يأكلون مما عملت ايدى غيرهم .

انهم فقط .. ينتقدون .. وما اسهل النقد ثم هم لا يعملون .. فما أصعب العمل .

ان العلم فى الاسلام — كما يفهم من موقف هؤلاء الشباب — يمهّد السبيل الى تربية النفس .. التى تنشط به الى عمل الخير .. ويتم ذلك كله فى سرية تامة .. فلا يعلم اهلهم .. ولا أصحابهم فى المسجد بما يفعلون .. فليس هناك شعارات براقة تزحم الألق .. بلا عمل .. بيد انه العمل فى صمت ابتغاء رضوان الله تعالى .. طبق فهم مرسوم .. ووقت مقسوم بين العبادة والعمل .

فاذا علمنا ان هذا الشباب من (الانتصار) من اهل المدينة ومن يساكتون اليهود .. أدركنا فى نفس الوقت بعدا آخر من

(١٤٧) من باب قتل . وفى لغة من باب ضرب .

ابعاد هذه الوثبة المباركة .. لقد تحالف بنو قينقاع مع الأوس .. وتحالف بنو قريظة وبنو النضير مع الخزرج .. فكانت الأوس تقترض من بنى قينقاع .. والخزرج تقترض من حلفائها .. وكان لهذا الحصار الاقتصادي المضروب آثاره فيما زينه اليهود من رذائل .. وما بثوه من مكر ودهاء عكروا به صفو الطبيعة العربية. فإذا نجح هذا الشباب في مدرسة العلم .. ثم في تتويجه بالعمل ، وإذا وصلوا بالعمل الى كسر هـ ذا الحصار المضروب .. ورد الكيد اليهودى الى نحور أعدائهم .. ثم الاحتفاظ بالولاء للدين ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استطاع هذا الشباب ان يثبت وجوده في دوامة المكر اليهودى .. فان ذلك دليل على ما في شبابنا من امكانيات مازالت صالحة لاستئناف الدور في عصرنا الحاضر . وعسودا على بدء .. بنى كما كانت أوائلنا .. تبنى .

لقد كانوا — بمسلكهم العملى — بنجوة من تأثير اليهود المتريصين بهم باعتبارهم قوة الغد .. وقادة المستقبل .. وكان تقلبهم بين المسجد .. والبيت .. دليلا على روحهم الجادة .. التى لا يتسع وقتها للجلوس فى ساحات اللهو .. ومواطن العبث .. وهو نفسه المسلك الذى رشحهم للقيام بدعوة الناس الى الاسلام : وفي لحظة غدر استشهدوا .. فحزن عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم .. وفاء لهم .. وتقديرا لدورهم .. ولموقفهم الصامد فى لحظة الموت .. لقد كانوا يزرعون الحياة .. بيننا الموت

يحصدهم حصدا .. (١٤٨) يقول .. جبار بن المسلمى .. وكان
واحدا ممن قتلوا هذا الشباب .

ان مما دعانى الى الاسلام .. أننى طعنت رجلا منهم يومئذ
بالرمح بين كتفيه .. فنظرت الى سنان الرمح حين خرج من
صدره .. فسمعتة يقول :

فزت والله ؟ .

فقلت فى نفسى :

ما فاز .. لقد قتلت الرجل !! .

قال : حتى سألت بعد ذلك عن قوله .. فقالوا :: يعنى
فاز بالشهادة .

فقلت : فاز لعمر الله .

ان معنى جديدا للنجاح يبرز الآن .. وليس هو الحصول
على رتبة أو درجة علمية .

ولكنه النجاح الساحق فى ساحة الاستشهاد حين ترخص
الروح فى سبيل الله .

(١٤٨) لقد دعوا الى الله بدمائهم وأرواحهم ييذلونها .. قبل أن يدعوا
اليه بكلاصهم وأناسيدهم .

خاتمة

لم تحظ سيرة من سير العظماء بمثل ما حظيت به سيرة نبينا
محمد صلى الله عليه وسلم :

١ — كان له تسع زوجات كلهن مأمورات بنشر كل ما يروونه
من شئونه قليلها وجليلها .

٢ — الى جانب الصحابة المأمورين بالتبليغ عنه .. ولو
آية واحدة .

٣ — يضاف الى ذلك اعداؤه الذين تربصوا به .. وحاولوا
أن يجدوا فيه مطعنا .. أو مغيضا .. فما وجدوا الا فسا من
الباس .. اينما طالعته .. بهرتك أشعة من سناه .

وناهيك بعظيم يرصده أصحابه في ادق صفاته .. حتى
وصفوا رمحه .. وسيفه .. ودرعه .. ونعله .. وقيامه ..
وتبسمه .. ثم يتواصى اعداؤه بالتفتيش عن تهمة واحدة في خلقه ..
فلا يجدون .

انه العظيم الذى يتحدى به ربه البشر جميعا .. تحديا
يجعل من رسالته قضية لا تقبل الجدل .. ومن شخصه صلى
الله عليه وسلم حجة قائمة على الناس . شهادة بأنه على
الحق المبين .

الأمر الذى يفرض على الدعاة اليوم مسئولية ابراز جوانب
هذه العظمة فى سيرته صلى الله عليه وسلم .. وفى الوقت الذى
أحس المثقفون من اتباع المذاهب الأرضية بالفراغ الناشئ عن
فقدان الاجابات الشافية عن هذه الاسئلة :

من اين ؟ والى اين ؟

ولا شك انهم سيجدون فى سيرته العطرة ما يشفى الغليل .
وبيل الصدى .

قال المستشرق « ماسينون » :

(يكفى لتعرف أوروبا محاسن رسول الله محمد — صلى الله
عليه وسلم — ومحامده . أن ينقل كتاب « الشفا » للقاضى عياض .
انى احدى اللغات الاوروبية) .

واذا اتيح لأوروبا أن تعرف محاسن الرسول صلى الله عليه
وسلم .. لو احيطت علما بهذا السفر الجليل .. فقد بقيت خطوة
اخرى على الطريق الطويل .. وهى : أن يدخل المنصفون هناك
فى دين الله افواجا .

ولن يتم ذلك لمجرد وقوفهم على طريقة اكله .. وصفة
سيفه .. ولون خضابه الى غير ذلك من ستن العادات التى يحفظها

بعض الشباب اليوم . ثم يغالون بها مغالاة تنسيهم ما يحويه البحر
في أعماقه البعيدة من لؤلؤ ومرجان !

وكما أن الحق تعالى سخر لكم البحر .. لا لامتاع العين ..
بمشهده الرائق فقط .. بل لتأكلوا منه لحما طريا .. وتستخرجوا
منه حلية تلبسونها .. فانه تعالى لم ينعم علينا بمحمد صلى الله
عليه وسلم لنتغنى في المحافل بلون عينيه .

وانما لنحشد كل قوائنا الذهنية والوجدانية في محاولة
لاستكشاف مواطن العظمة في شخصه الكريم .. ثم تجليتها
للناس .. وعلى مرآتها سيرون العظمة في آفاقها العالية .

ان الحق سبحانه وتعالى يقول :

(١٤٩) ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

وحرف الجر « في » هنا .. يهيب بالتأملين .. أن يرتفعوا
الى مستوى « المتوسمين » .

« المتوسمين » الذين يتجاوزون القشرة البادية الى
الاعماق .. الى القدوة الحسنة .. التى صارت اليوم أنجح
وسائل الدعوة .. وهو الأمر الذى حاولت الاسهام فى تحقيقه بهذه
الصفحات .

ولقد كان هذا المعنى يلح على خاطرى وأنا اكتبها منطلقا
من تجاربى فى حقل الدعوة .. ومعايشتى لشباب لا ينفصلهم الاخلاص
بقدر ما ينفصلهم الفهم العميق المستوعب :

(١٤٩) سورة الاحزاب آية ٢١

لقد شغلوا أنفسهم بأمور ثانوية . غافلين عن الحقائق
النافعة في سيرته صلى الله عليه وسلم . وعن مواطن الأسوة
الفعالة .

وانك لترى أحدهم يرفع يديه في الدعاء حتى ليكاد يكشف عن
فراعه ليرى بياض إبطه اقتداء بالرسول الكريم .. فإذا رحت
تسأله عن فقه هذا الدعاء .. وعمما فيه من دلائل البعث
والتناؤل والعمل .. سكت !

فإذا أردت أن تلزمه كلمة التقوى حاول أن يشغب عليك
بما يحفظ من نصوص ينثرها هكذا بلا وعى .

وصار الأمر على ما يقول الامام محمد عبده :

(جمود أحكام الشريعة جر الى عسر حمل الناس على
أعمالها .

كانت الشريعة الإسلامية أيام كان الإسلام اسلاما ..
سمحة . تسع العالم بأسره . وهى اليوم تضيق عن أهلها ..
حتى يضطروا الى أن يتناولوا غيرها . وأن يلتمسوا حماية حقوقهم
فيها لا يرتقى اليها . وأصبح الاتقياء من حملتها يتخاصمون الى
سواها) .

ان المشركين الذين نشأ بينهم محمد صلى الله عليه وسلم قد
اجمعوا على أنه : الصادق . الأمين .

ولم يكن هذا الاعتراف مردودا على صحيفة يملكها تنوه
بصدقه وأمانته .

وانما كانت حياته العملية شاهد صدق على انه كذلك .

(كان يتعاطى فيهم التجارة . ويعاملهم في امور الحياة ليل
نهار . وهى الحياة اليومية . وما تنطوى عليه من اخذ وعطاء ومن
شأنها ان تكشف عن اخلاق المرء . فيتبين للناس فسادها
وصلاحها .

وهى عيشة طويل طريقها . كثيرة منعطفاتها . وعرة
مسالكها . تعترضها وهدات مما قد يصدر عن المرء من خيانة .
واخفار عهد . وأكل مال بالباطل . وعقبات من الخديعة .
والخيانة . وتطيف الكيل . وبخس الحقوق . واخلاف الوعد .

ان الرسول صلى الله عليه وسلم اجتاز هذه السبيل
الشائكة الوعة . وخلص منها سالما نقيا . لم يصبه شيء مما يصيب
عامة الناس . حتى لقد دعوه بالأمين .

وان قريشا بعد بعثه كانوا يودعون عنده ودائعهم واموالهم
لعظيم ثقتهم به .

ولقد هاجر صلى الله عليه وسلم . وخلف « عليا » ليرد
ما كان لديه من الودائع الى اهلها (١٥٠) .

وهذا جانب واحد من جوانب حياته صلى الله عليه وسلم . .
وهو فضيلة تشكل جنديا يقف الى جانب الداعية يؤكد للناس

صدقه .. ويلقم حجرا كل فم يحاول الاقتراب من ساحته الطهور
مدعيا منكرا من القول وزورا .

وهو الأمر الذى نؤكد عليه .. ونلفت نظر الدعاء اليه ..
حتى اذا دعوا الى الله تعالى .. اقتطفوا من خلاله العظيمة باقات
من الروح والريحان تسر الناظرين .. وتنجد الطالبين .

والله يقول الحق وهو يهdy السبيل

الفهرس

- تقديم .. لفضيلة الدكتور محمد الطيب النجار . . . ٥
- بين يدى السيرة النبوية — تمهيد ومقدمات بقلم المؤلف . ١١
- خصائص الامة العربية حاملة الرسالة ٢٠
- محمد صلى الله عليه وسلم .. نسبه .. نشاته .. كيف
اعده الله تعالى لحمل الرسالة ٢٣
- خصائص البيت النبوى ٢٦
- حادثة شق الصدر ٢٩
- طفولة على مستوى الرجولة ٣٨
- سياحته — صلى الله عليه وسلم — فى البلاد . . . ٤٥
- محمد بين حرب الفجار وحلف الفضول ٤٧
- من رعى الغنم الى قيادة الامم ٥٠
- التاجر الأمين ٥٣
- قصة زواجه من خديجة ٥٧
- كيف تم الزواج ؟ ٦٣

٦٦	من تجارة الدنيا الى تجارة الآخرة
٧٥	محمد صلى الله عليه وسلم بين الانبياء
٨٢	الرؤيا الصادقة
٨٧	ميلاد الانسان
٩٠	خديجة تدير الحوار
٩٢	خديجة والبحث عن الحقيقة
٩٧	الدعوة السرية دعوة العشرة
١٠٢	بعض ما لقيه المسلمون من اذى قريش
١١١	ابو طالب حائر بين عقله وقلبه
١١٣	الباطل يستسلم
١١٨	التنكيل بالمستضعفين
١٢٣	اسلام حمزة
١٢٥	اسماء الفتيان الذين اسلموا في العهد السرى
١٣٢	الهجرة الى الحبشة
١٤٢	مؤامرة على النجاشى
١٤٦	اسلام عمر رضى الله عنه
١٤٧	دروس من الهجرة
١٥٠	الهجرة والامتحان العسير
١٥٣	معيضة الله
١٥٥	انتصار بكل المقاييس
١٦٤	الهجرة والنصر الاكبر
١٦٨	دعائم النصر

١٧٨	مواقف من غزوات الرسول
١٨٠	درس من غزوة بدر
١٩٠	كيف عامل المسلمون أسرى بدر ؟
٢٠٤	بين بدر واحد
٢٠٧	صور مشرقة للفداء
٢١٣	دور المرأة في غزوة احد
٢١٨	دور الغلمان
٢٢١	الآثار الحبيدة لغزوة احد
	خواطر حول فتح مكة .. قصة حاطب بن أبى بلتعة
٢٢٣	ونفى تهمة التجسس عنه
٢٣٨	الدعوة بين الملحمة والرحمة
	شباب على طريق الاسلام يحصدهم الموت ولكنهم
٢٤٤	يزرعون الحياة
٢٥١	خاتمة

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٩٠ / ٤٤٦١

لترقيم الدولى 2-002-977-205 I.S.B.N.

مطابع الاعتراف بكونه نيل

مركز السيرة والسنة

يضم هذا المركز نخبة ممتازة من المتخصصين في علوم السنة وفي التاريخ الإسلامي ويتكون من لختين : إحداهما للسيرة النبوية والثانية للحديث النبوي الشريف . وقد وضعت لجنة السيرة منهاجاً لعملها يوضح أهدافها ومسيرتها . ويتلخص هذا المنهاج فيما يلي :

أولاً : تقديم مجموعة من الكتب صغيرة الحجم يختص كل كتاب منها في جانب من جوانب السيرة النبوية . ويراعى فيها سهولة الأسلوب ، ووضوح العبارة ، وعدم الإغراق في التفاصيل والآراء المختلفة . والهدف منها تقديم السيرة لجمهور القراء بعيداً عن الشبهات نقية من الأوهام والأباطيل .

ثانياً : كتابة موسوعة كبرى ومرجع كامل للباحثين في سيرة الرسول ﷺ يعالج كل جوانب السيرة النبوية ويرد على الشبهات التي دسّت في كتب السيرة منذ القرون الماضية .

ثالثاً : مراجعة أمهات كتب السيرة الشهيرة والتعليق عليها ، وتصحيح ما يحتاج إلى تصحيح مما ورد فيها .

رابعاً : ترجمة بعض الأعمال التي تصدر عن لجنة السيرة إلى اللغات الحية وإلى لغات الدول الإسلامية غير العربية .

خامساً : الاتصال بمراكز السيرة والسنة في البلاد العربية والإسلامية وذلك باللقاء المباشر وكذلك بتبادل المعلومات والأفكار والمطبوعات .

ومن الله العون وبه التوفيق